دكتور
عادل صادق

امرأة و ..
ثلاث رجال

مؤسسة حورس الدولية
مؤسسة طيبة للنشر



امرأة وثلاث رجال

الناشـــــــر:

مؤسسة حورس الدولية للنشر والتوزيع

١٤٤ ش طيبة ـ سبورتنج ـ الإسكندرية.

ت/ فاكس : ٠٣/٥٩٢٢١٧١ ـ ٠٣/٥٩٣٠٥٩٨

مؤسسة طيبة للنشر والتوزيع

٧ ش علام حسين الظاهر ـ القاهرة.

ت / فاكس : ٠٢/٧٨٦٧١٩٨ - ٠٢/٦٨٢٦٧٤٦

الطبعة الأولى – ٢٠٠٤

اسم المؤلف : د/ عادل صادق.

اسم الكتاب : "امرأة وثلاث رجال".

مراجعة لغوية : عبد الرحمن الجبالي.

إخراج فني : سعيد شحاتة.

رسوم الغلاف : ممدوح طلعت.

كمبيوتر جرافيك : أحمد أمين.

مدير النشر: : مصطفى غنيم.

رقم الإيداع : ١٠٥٤٧ / ٢٠٠٤

الترقيم الدولى : 977- 368- 010- X


بسم الله الرحمن الرحيم



محتويات الكتاب

م	الموضوع	رقم الصفحة
١	القتل من أجل الحياة	٩
٢	رق الحبيب	١٧
٣	أمي .. شقيقتي .. صديقتي	٢٥
٤	بكارة الإحساس	٣٣
٥	أسطورة من جنوب الوادي	٤١
٦	أسطورة من قلب أسطورة	٤٧
٧	٦٠- ٧٠- ٨٠- ٩٠	٥٣
٨	المباغتة والابتلاع	٦١
٩	مدد من السماء	٦٩
١٠	امرأة تصادق رجلاً	٧٧
١١	امرأة طموح	٨٥
١٢	الشياطين تتحدى المدينة	٩٣
١٣	رجل وامرأتان	١٠١
١٤	الدفء	١٠٧
١٥	زوجة الأخ	١١٣
١٦	الأشياء	١٢١
١٧	تناقضات عاطفية	١٢٧
١٨	امرأة وثلاثة رجال	١٣٥
١٩	اثنان على الأرجوحة	١٤٣
٢٠	امرأة عاجزة عن الحب	١٤٩
٢١	المؤانسة	١٥٧
٢٢	إلغاء البشر	١٦٣
٢٣	إرهاصات	١٦٩

القتل من أجل الحياة

تـــنام المديـــنة مثلما ينام الإنسان.. تسترخي وتغمض جفنيها، تهدأ أنفاســـها وتنتظم.. تطفح السكينة على وجهها.. يذهب عنها الغيظ والحَنَق الـــنهاري.. يغادرهـــا الشـــر مـــثلما يغادر أي كائن نائم.. النوم والشر لا يجـــتمعان إذا نظرت إلى أعتى الأشرار وهو نائم تجده طفلاً يستثير لديك مشاعر الرحمة، وحينئذ تكره النهار الذي يملأ النفوس بالضغينة ويستحثها على العدوان والبغي والتآمر.

ولكن لا تصلح حياة بدون نهار.. ويبدو أيضاً أنه لا تصلح حياة بلا شـــر.. الشـــر يفسح لنا الطريق لنعرف الخير، وأصل الخير هو الرحمة.. ورحمـــة الله وســـعت كـــل البشـــر مهما كانت أخطاؤهم فالإنسان يخطئ ليصيب.. ويقسو ليرحم.. والإنسان ضعيف.. يشيخ ويمرض ويموت.. لا يبقى شيء على حاله.. دوام الحال من المحال. ويتعاظم الشر مع الشباب.. ويخـــبو كلمـــا انحـــنى الظهر وثقلت الأقدام.. والوعد بالجنة يعجل بطلب المغفـــرة قـــبل فـــوات الأوان فـــالموت المفاجـــئ احتمال قائم.. والتأجيل مـــرفوض، وأســـوأ ما كان يدمي القلب وليس ذلك الذي يخلق أذى مادياً.. وأكـــثر ما يدمي القلب هو الغدر .. الخديعة .. التنصل من الوعد .. ولكن قصـــتي قادتنـــي إلى ما هو أسوأ من الأسوأ إلى ما هو شرٌ من الشر.. ما تعرضـــت له لا يدمـــي فقط القلب ولكن يصفعه.. يفتّته.. أو يدفعه للتوقف المفاجئ لتنتهي الحياة ويتوقف الألم.

ولكنـــي قاومـــت لكي أستمر لا أريد لحياتي أن تنتهي فأنا أريد أن أعـــيش.. اســـتمتاعي بالحـــياة يربطنـــي بها.. فعلى الجانب الآخر الخير والجمـــال.. فمثلما تصحو المدينة ويتصاعد شرها فإنها أيضاً تنام ويشملها الخـــير والجمـــال ورغم أن النهار يرهقني فإن الليل يداويني.. يهدهدني.. يؤنسني صمته.. تصفو نفسي.. أما البهجة فتأتيني حين يكتمل القمر.. سلام فـــي سلام.. وجمال في جمال.. فكيف أحرم نفسي من كل ذلك.. ولذا لابد أن أدافع عن بقائي وأن أحمي وجودي وأن أقف في وجه الشر.. والشر لا يوقفه إلا شر مثله. والشر الذي ملأني وفاض، كان من أجل أن أحيا، شر مـــن أجل الحياة وليس شراً من أجل الشر، إنه شر في مواجهة شر أعتى منه.. شر مرهون بشر آخر.

لقـــد قـــررت أن أقـــتل.. وحين تأملت الأمر تعجبت.. كيف ينقلب إنســـان مسلم إلى مجرم، كيف أزهق روح إنسان آخر.. كيف أواجه نفسي بعـــد أن أتم جريمتي.. كيف أحمل لقب قاتلة.. كيف أتوارى عن ضميري ولا يواجه أحدنا الآخر.

وهـــل ممكـــن أن يتحول إنسان من الخير إلى الشر بهذه البساطة.. إذن أي إنسان من الممكن أن يرتكب أي جريمة تحت ظروف معينة. إذن الظـــروف هي التي تتحكم في سلوك الإنسان، وليس طبيعته الأصلية.. لقد درســـت فـــي الجامعة أن السلوك محصلة الاستعداد الشخصي والضغوط الخارجـــية. ولكـــن يـــبدو أن هـــذا رأيٌ غير دقيق أو أن حجم الاستعداد الشخصـــي نحـــيل عـــند المقارنـــة بأهمية العوامل الخارجية. إلا إذا كان الاســـتعداد الشخصـــي أمراً، يظهر في الوقت المناسب حين تدعو الحاجة إلـــيه. وهـــذا معناه أنني مجرمة بالطبيعة وشريرة بالسليقة مما جعل قرار

القـتل هيناً فاتخذته بسهولة.. إنني في حيرة من أمر نفسي، ما إن اتخذت قـرار القتل حتى ملأتني الحيوية وهدأت نفسي واستراح خاطري، شعرت بأنني فديت حياتي بهذا القرار..

ولم أحاول أن أقدم لنفسي تبريرات ساذجة بأنني سأخلص العالم من إنسـان شرير وبذلك يكون القتل من أجل الخير.. القتل هو القتل.. والقتل جـريمة.. وأنا سأقتل لأحمي حياتي.. لأستمر في الحياة لأنني أحب الحياة ولأنني أستمتع بالحياة.. أما كيف أصبحت قاتلة فهذا أمر لا يهم.. المهم أن القتل علاج.. القتل شفاء.. القتل يحمي القلب من التفتت في مثل حالتي.

كمـا ليس أمامي أي وسيلة أخرى لحماية نفسي. بل ربما استنفدت كـل الوسائل السلمية فلم تفلح. لأن الشر لا يجدي معه إلا الشر.. مثلما لا يفل الحديد إلا الحديد.

وكانـت مشكلتي الثانية في حواري مع نفسي هي كيف أقتل إنساناً كنـت أحبه؟ وهل أنا كففت فعلاً عن حبه؟ وإذا كنت قد كرهته فهل تنقلب عواطف الإنسان لأي سبب من أقصى الحب إلى أقصى الكراهية؟ هذا أمر مخـيف.. كـيف نثق بالعواطف!! بل كيف نثق بالإنسان!! ألا يوجد ثبات واسـتقرار واستمرارية!! كيف نطمئن إلى الغد!! هل حقاً صديق اليوم هو عـدو الغد، وعدو اليوم هو صديق الغد!! إنه شيء مخيف.. هل هذه هي طبيعة البشر أم طبيعتي أنا فقط.. لقد أصبحت أمام خيارين.. إما أن أصدق أن هذه هي طبيعة البشر أو أن أواجه نفسي ولا أخدعها وأعترف بأن هذه هـي طبيعتي أنا الخاصة والتي تختلف عن طبيعة غالبية الناس وتتفق مع طبـيعة القلـة التـي لديها الاستعداد الكامن للشر والتي ليس لديها الثبات والاستقرار في المشاعر.

وتســـاءلت بجزع: أيهما أفضل؟ أأسيء الظن بالناس أم أسئ الظن بنفسي؟ وبلا تردد أجبت: إنه أهون علي أن أسيء الظن بنفسي ولا أسيء الظن بالناس.. إذا أسأت الظن بكل الناس معناه أنني أسيء الظن بالحياة.. يصـــبح الشر هو أساس الحياة ومحركها وباطنها وظاهرها.. يتساوى ليل المديـــنة مـــع نهارها.. يتساوى القبح والجمال. بل لا يوجد معنى للخير.. يصـــبح الخـــير ادعاء وأكذوبة ومواربة.. لو أن الحياة كذلك لفضل الناس الانـــتحار علـــى الحـــياة. إننـــي اعترف بملء صوتي وكل إرادتي بأنني شريرة.. ولذا قررت أن أقتل إنساناً كنت أحبه وإليكم قصتي...

اختارني من بين زميلاتي الجميلات بالرغم من توسطي الجمالي.. إلا أنني كنت متميزة بروحي المتوثبة ونضوجي العقلي المبكر ورومانسيتي التي كانت تجد متنفساً لها في أشعاري.. وذلك بالإضافة إلى قوة شخصيتي التـــي كانت تغري البعض بالارتكاز علي وطلب المساعدة والمشورة.. أما هـــو كـــان أكـــثر ما يميزه جمال وجهه الذي طغى على المظاهر الذكرية الخشـــنة مما كان يوحي بأنه في حاجة إلى فتاة قوية تساعده على مواجهة الحـــياة. وربمـــا كان ذلك هو دافعه للوقوع علي. ولم يستغرق الأمر وقتاً طويـــلاً حـــتى صرنا حبيبين.. وفي الجامعة لابد من التخصيص.. أي أن فلاناً وفلانة مرتبطان بعلاقة خاصة.. كان ذلك منذ خمس سنوات وكنا في السنة الأولى من دراستنا الجامعية.

وأي علاقـــة عاطفية تنشأ بين زميلين في الجامعة تبدأ بالرومانسية المحضـــة ثـــم تتطور تدريجياً وتقفز إلى أعلى وإلى الأمام ولكنها أبداً لا تصل إلى العلاقة الكاملة خاصة بين أبناء الأسر المتوسطة والمحافظة التي مازال الدين يمثل أحد أركان حياتها المهمة. وكنت أنا متدينة أما هو فكان

نصف متدين وتعبير نصف متدين كنا نطلقه على الذين يؤمنون بالله وكتبه ورسله ولكنه لا يؤدي العبادات المفروضة عليه.

وصـــلت علاقتنا إلى المستوى المعتاد لمن هو في مثل حالتنا والتي لا تـــتجاوز اختطاف القبلات حين تسمح الظروف بمكان يخلو من العيون المتلصصـــة. ورغم ندرتها، ورغم أنها كانت تؤدى على عجلة دون تمعن إلا أنهـــا كانت قبلات نارية تلهب الجسد كله وتثير العطش أكثر مما تحقق الارتـــواء وكانت مصحوبة بالبهجة والإثارة خاصة أنني كنت أحبه وكنت أستشـــعر إخلاصـــه.. وبداية القبلات تكون مصحوبة دائماً بوعد الزواج. وتعاهدنا على أن نتمم ذلك بعد التخرج مباشرة..

إلا أن الضـــباب كـــان يغطي حتى المستقبل القريب فلا تراه أعيننا وبالتالي لا نستطيع أن نحدد موقع واتجاه خطواتنا. كنا فقط نتمنى ولكن لا نملك فرصة التخطيط الدقيق. كان يقول لي سأتزوجك بعد التخرج مباشرة ولكـــن كـــيف سيتحقق ذلك فإنه كان لا يعرف. ولأنني كنت أملك شجاعة مواجهة الحقائق فإنني كنت أسأل السؤال بصوت مرتفع وأحاول أن أجيب عـــنه بنفسي.. وكانت الإجابة هي استحالة أن نستطيع أن نتزوج ولو حتى بعد عشرين سنة من التخرج..

وكـــان الـــيأس يتملكنا في أحيان كثيرة فكانت القبلات هي العزاء الوحـــيد.. إلا أن هذه القبلات كانت تضنينا وترهق أجسادنا الشابة الفائرة القويـــة والجائعـــة بشدة وكنا قد اقتربنا من سنة التخرج، وفاجأني في يوم بفكرة أن نتزوج عرفياً. ورغم شيوع هذا الأمر خاصة في مجتمع الجامعة إلا أننـــي كنت أجهل تفاصيله.. شرح لي الأمر فقلت أن هذه علاقة جنسية مغطـــاة، إنهـــا ورقة التوت أو ورقة الحياء. إنها محاولة لإضفاء الشرعية

وصبغ الحلال على شيء حرام وبذل جهداً لإقناعي بصحة هذا الزواج وكنت على استعداد للاقتناع أو بي رغبة شديدة للاقتناع ليس لأني غير قنوعة بالقبلات القليلة السريعة المغنية ولكن لأن اليأس كان يحاصرني وثقتي بعدم إمكانية تحقيق الزواج في الوقت الذي حددناه.

وتزوجنا عرفياً.. مجرد ورقة وشاهدين من زملائنا.. ولكي تكتمل صورة الزواج ومعناه.. لابد من الفراش الواحد وما يعنيه هذا الفراش من علاقة كاملة.. أي زوج وزوجة ولكن بتخطيط محكم ألا يكون هناك أطفال.

لم يكن لنا فراش دائم ولكننا كنا ننتقل من مكان إلى آخر، ولا أستطيع أن أدعي أنني كنت غير سعيدة.. على العكس.. كنت راضية مرضية.. وأرجو ألا يسيء أحد الظن بي لم يكن رضاي بسبب الإشباع الجنسي ولكن لأنني حققت حلمي ولو بشكل جزئي، لقد أصبحت زوجة وحبيبي أصبح زوجاً لي. كان يهمني جداً لقب زوجة. وقلت إن السعادة الحقيقية للمرأة في هذه الحياة أن تصبح زوجة.. أن يكون هناك رجل في حياتها يحمل لقب زوج.. زوجها.. ملكها الخاص.

وتخرجنا ولم أتعجله لإعلان الزواج بالشكل الرسمي التقليدي فكنت أدرك استحالة ذلك في الوقت الحالي.. وحدث تطور غير متوقع حملت.. وتصورت أنه لا يوجد إلا حل واحد.. وهو أن نتزوج أو على الأصح بعقد رسمي ومعلن وفي وسط الأهل.. ولم يكن لدي أدنى شك في تطابق رأيه مع رأيي في هذا الشأن.. وأطلعته على الخبر السار.. وكأنما تلقى خبر وفاة إنسان عزيز وأمرني بالإنزال الفوري للجنين.. أي أجهض نفسي وتصورت في البداية أن ذلك راجع للظروف الاقتصادية التي لن تسمح في

الوقــت الحالي بإيجاد عش الزوجية.. ولكنه دون أن يطلب منه افصح عن وجهه القبيح وروحه الشريرة ونفسه المتلوية.

أخبرنـــي أنـــنا لن نتزوج على الإطلاق.. لا أقول إنني صعقت فقد تصـــورت فـــي البداية أن ذلك راجع إلى حلقة اليأس المحكمة حول عنقه وعنقـــي فالمســـتقبل مظلم مظلم مظلم ولذا لم يكن في حاجة إلى أن يبدي تفسيراً آخر.. ولكن ربما لأنه توقع أنني سأحاول أو أبسط له الأمر وأزيل مـــن أمامـــنا بعض العقبات فتقل قبضة اليأس حول عنقنا فإنه بادر بالتأكيد علـــى أننا لن نتزوج لأنني لست بالفتاة التي تصلح زوجة، فلقد فرطت في نفسي له وأنا طالبة ورضيت بالزواج العرفي بالرغم من أننا ندرك معاً أنه لـــيس زواجاً ولا يحزنون، وأنه إذا فكر في الزواج يوماً فإنه سيختار فتاة تعرف كيف تحافظ على شرفها.. وكان ذلك آخر لقاء بيننا.. وانشغلت على مـــدى شـــهر بعملية الإجهاض ومداواة جراحي النفسية حتى جاءني خبر ارتـــباطه رسمياً بإحدى الزميلات بل تحدد موعد الزفاف في خلال شهور قلـــيلة. وانطفأ حزني وزوال ضعفي وتملكني قوة مارد.. وقلت لنفسي هذا أســـوأ إنســـان خلقه الله.. إنه ظل الشر على الأرض.. ولا أدري أي روح لبستني. هل روح الانتقام العادل أم روح الشر المطلق.. قررت في لحظة أن أقـــتله.. نعـــم أقتله.. أقتله.. قتلاً.. ربما بسكين أو رشق رصاصة في منتصف رأسه أو أضع له سماً في طعام أو شراب.. المهم أن يموت.. أن يختفي من هذه الحياة.. فهو إساءة للحياة والأحياء.. لقد أماتني حين أخلف وعده، وأماتني مرة ثانية حين جرح كرامتي، وأماتني مرة ثالثة حين قرر الـــزواج الســـريع.. ولكني لا أريد أن أموت.. أريد أن أعيش.. ولكن لن أعيش إلا إذا قتلته.

الحياة لا تحتمل وجودنا نحن الاثنين.. إما أنا وإما هو، إما المظلوم وإمـــا الظـــالم.. إما المخدوع أو المخادع.. إذا عاش هو سأموت أنا.. وإذا مـــات هـــو ســـأعيش أنـــا.. حياتـــي من موته.. وأنا هنا لا أعني العدل والقصاص.. ولا أريد أن أشفي غليلي بالانتقام ولكنني أريد أن أحافظ على توازنـــي مـــا فـــي هذه الحياة.. الحياة لا تحتمل وجود هذا القدر من الظلم والمظلـــوم لا يمكـــن أن تستمر حياته تحت مظلة الظلم البين الذي وصل أقصـــى مداه ومعلناً عن نفسه بتبجح إلى حد الفجور.. استمرار الظالم في هذه الحياة يؤدي إلى حالة من الخلل وعدم التوازن تُودِي بحياة المظلوم.

أنـــا الآن لســـت حزينة ولست مغتاظة.. ولا أدعي شجاعة الفارس النبـــيل الـــذي يريد أن يخلص الحياة من الشر، ولكني ميتة أريد أن أعود للحياة وشرط عودتي أن يموت الذي ذبحني.. أنا أدافع عن فكرة.. أقر مبدأ أرســـي قواعـــد حكـــم جديد.. أضيف إلى مفاهيم الحياة مفهوماً جديداً عن استحالة استمرار حياة الظالم والمظلوم معاً وأن أحدهما يجب أن يذهب إلى الجحـــيم.. أقصـــد جحـــيم الموت.. فالحياة تستحق أن نحياها إذا كان فيها توازن. اتصلت به وقلت إني غفرت له وإنني أريد أن أقضي آخر ليلة معه ســـراً دون أن يعرف أحد.. تخفيت وذهبت.. ونهشني بمجرد أن لقيني ثم نام.. ولأول مرة لا أرى الشر يغادر وجه إنسان حين ينام.. بل طفح شره وهو نائم.. فعرفت أنه حالة غريبة، ربما هو الشيطان يعيش على الأرض. وبمشـــاعر باردة جداً دون أدنى وجل واهتزاز ودون حتى كراهية غرست الســـكين فـــي الشريان الرئيسي في رقبته ثم أعدت غرسها في المنتصف لـــتمزق القصـــبة الهوائية فلا يستطيع أن ينطق إلا أنه ظل ينظر إلي حتى تهـــاوى جفـــناه فعرفـــت أنه مات.. غادرت المكان وقلبي يرقص بعودتي للحياة.

رق الحبيب

تخــتلف ســاعة الفجر عن ساعات الليل والنهار وأقصد بها تحديدا نصف الســاعة السابق على أول إطلالة شعاع نور على الأرض، ونصفَ الساعة التالي لهذه الإطلالة حيث يتوافر النور بغزارة، فنستبين الطرق المؤدية إلى بــيوت الله وإلــى أماكن العمل وأي عابر طريق خلال هذا الوقت إما أنه ذاهب للقاء أو ذاهب إلى عمله، ولحكمة لا يتصف بها إلا الحق جعل ثواب لقائه يتساوى مع ثواب العمل.

وحيــن يمضــي الإنســان متلمســا طريقه بقدر ما يسمح به الضوء مستنشــقا هواء قد نقَّاه ورطَّبه الندى، فإنه يشعر بالانشراح، آه من انشراح الصــدر حيــن الفجــر، مهما كانت الأحزان التي تجثم على الصدر فإن انفــراجةً ما تبعث على الهدوء النسبي تخفف من عبء الأثقال وتهدئ من الــروع وتسمح بتسرب بعض الأمل المحمل بالسرور. وأتصور أن الفجر قد جعل لذلك، و"ألم نشرح لك صدرك" وإن قيلت في موضع آخر إلا أنها آيــة الفجــر الساحر المهيب البسيط والوديع الجميل الرقيق جالب الفرحة ماحِق الأحزان مثبت القلوب.

وما أسعد من استجاب للنداء ونهض وتوضأ وصلى. ثم راقب السكون والســلام اللذَيــن يلفــان الأرض ومــن عليها وكأنها تواصلت مع السماء فصــارتا رقعــة واحدة، وتواصل الإنسان مع ربه فصار قويا فصار آمنا مطمئنا.

والفجر دليل حركة وحياة فهو فاصل بين ليل راحل ونهار قادم، إلا أنـــه يظل هو المقدمة للنهار، الجالب للنور المؤيد لأفول الظلام، والداعي للـــنهوض، يا عابد استيقظ، فالصلاة خير من النوم، يا عامل قم ليرى الله عملك ورسوله والمؤمنون، ويا عاشق انتبه فليل الأحلام قد ولى، والعشاق ينـــتظرون الفجـــر بشغف ليتجدد الأمل فهذا يوم جديد أضيف إلى العمر، الحـــب حبنا مستمر، مستمر، مستمر، إنه الخلود الأبدي، وما أروع خلود المشـــاعر وكأننا قد اكتسبنا شيئا من روح الجنة، ولذا فأنا حينما أناديك يا جنتـــي فإننـــي أضفي معنى الخلود على ندائي ومعنى الخلود عليك ومعنى الخلود على حبنا.

هذا هو لسان حال العشاق عند الفجر، وفجر العيد هو العيد، عيد قبل العـــيد، إنـــه ترقب الفرحة الكبرى، وترقب الفرحة فرحة، وتوقع السرور سرور، والاشتياق إلى اللقاء أهم ويا لغرابة الإنسان ؟! الأمل عنده أهم من الـــتحقق، وترقـــب الشيء أهم من وقوعه، والمعنى أهم من المادة، والحب أهم من الجنس والذكرى أهم من الحدث.

ويـــا لغرابة الإنسان وهو يتمنى مرور الوقت بسرعة وذلك حين يأمل ويحلـــم ويترقب ويشتاق رغم أن مرور الوقت يخصم من عمره، كل دقيقة إلـــى الأمـــام تنقص دقيقة من المتبقي، ولكن العمر عند العشاق لا يحسب بالساعات، العمر الحقيقي عند العشاق هو لحظات الشوق، لحظات الانتظار للقـــاء، أنه ألم الحنين، إنه اللحظة التي تسبق اللقاء وليست اللحظة ذاتها أو اللحظـــة التـــي تليها، اللحظة التي تسبق اللقاء هي لحظة النشوة الكبرى، لحظـــة الهـــزة العنيفة لحظة اليقظة التامة لكل الجوارح ولحظة الاستثارة القصـــوى لكـــل الخلايا ولحظة اللذة الفائقة للروح والجسد، إنها اللحظات

الفاصلة بين الألم وزوال الألم، بين الظلام والنور، وذلك كله يتجسد في معنى الفجر، فالفجر هو اللحظات الفاصلة، وآه لو اتفق كل العشاق على أن يلتقوا عند الفجر، إن في ذلك تحقيقا للمعنى كله.

النهار يكشف الأسرار ويفضح العشاق ويعرضهم لحسد المحرومين ولذا فالأولى بهم أن يمضي كل منهم إلى حال سبيله على أمل لقاء آخر عند الفجر القادم. وما أتعس أن يخلف عاشق وعده أو أن يؤجل موعده، وما أصعب أن يكون الأجل غير مسمى، هنا تشتعل النيران وتئن القلوب وتكتئب النفوس وتتعذب الأرواح، الاكتئاب هو بعد الحبيب، هو فقد الحبيب، الاكتئاب هو ترقب فجر لا يجيء، الاكتئاب هو فشل علاقة أو انهيار بيت، الاكتئاب هو الانفصال والخصام وتبدل الحب ليصبح عداوة. وما كان حقيقيا لا يموت ويصبح الانفصال مؤقتا والعداوة سطحية وتظل النيات حسنة تمنع الإنسان من القسوة البالغة، تحُدُّ من التمادي، توقف الظلم، ترقق القلب، تهذب النفس، تنقي الروح. ما أروع الحب، وما أروع الفجر، الحب والفجر شيء واحد، فكل منهما في طياته الأمل والرحمة، ولا يرحم إلا من كان في قلبه حب ولا يحب إلا من كان في قلبه رحمة، الحب يلد رحمة، والرحمة تلد حبا.

والقصة بدأت منذ سبعة وعشرين عاما بالتمام والكمال، قصة عادية مثل كل قصص الحب حين يلتقي قلبان أهم ما يتسمان به هو العذرية، وعذرية قلب معناها أنه لم يسكنه حب من قبل، فإذا التقت القلوب العذراء على الحب يكون ذلك هو الحب الأول، وهو حب ذو صبغة لا يمكن التخلص منها أو نزعها، صبغة لا تمحى حتى وإن جاء بعده مائة حب، الحب الأول كالفجر الأول في عمر الإنسان، إنه الشعاع الأول هو الاشتياق

وهــو الألم، وهو كل أغنيات الحب وأشعار الغرام والألحان والغزل وهو آية الجمال وسحر البيان، يبدأ حلما ويستمر حلما ولا يتبقى منه بعد ذلك إلا ذكرى حلم.

كانــت دون العشرين وكان دون الخامسة والعشرين، والأمر بالنسبة للفــتاة بــالذات كان يبعث على الدهشة والخوف المشوب بالرغبة المبهمة وثمــة أحاسيس غريبة تنتاب الجسد حين يلمسها تهرب منها وتسعى إليها وتصيبها بالدوار، وتواعدا على الزواج فرحت كطفلة والطفل يعيش أقصى درجات الفرح لأنه يصدق ولا يحذر، لا شيء يفسد عليه الإحساس الكامل بالفــرحة. وفي اليوم الذي تحدد لذهاب الشاب ليلتقي بأسره فتاته لخطبتها اخــتفى، وحيــن سألت عنه قيل لها إنه هاجر، ولأن كل قلب يعيش خبرة الحــب الأول هــو قلب نقي بريء فإنها تصورت أن الهجرة أمر مفاجئ ومباغت ويحدث لظروف اضطرارية تدفع الإنسان لاتخاذ قرار الهجرة في غضون ساعات.

وانــتظرت خمس سنوات كاملة، إنه أمر صعب تصديقه ولكنه حدث، وهذا يكشف عن براءة قلب ونقاء روح وسماحة عقل، خمس سنوات وهي تتوقع أنه سيأتي فجأة مثلما غادر فجأة، وكرست صديقة خبيرة جزءاً كبيرا مــن وقــتها لتشــرح لها ما حدث، وبدلا من التأرجح بين التصديق وعدم التصديق فإنها أصيبت بالاكتئاب ليس لفقد الحبيب ولكن لغلظة القلب وسوء القصــد، ويستغرق الأمر عامين لتبرأ ثم تتزوج بقلب بارد ولكنه لا يعرف إلا الإخــلاص، وبعد عشرين عاما من زواج هادئ تحت مظلة الإخلاص والاحــترام مات الزوج وترك لها فتاة في الثامنة عشرة تشبهها تماما وابنا في السادسة عشرة شابه أباه شكلا وسلوكا.

ورغــم أن واقع الأحداث في الحياة العادية أصدق من واقع الأحداث فـــي الأعمـــال الروائـــية فإن الحبكة الدرامية لا تمثل ضرورة لنصدق ما يحـــدث في واقع الحياة، إلا أن هذا لا يمنعنا من أن نشهق ونقول هذا أمر يفـــوق الخيال وإذا قرأناه في رواية فإنها رواية ساذجة غير منطقية، وهذا هو ما حدث بالنسبة للقصة الواقعية التي نحن بصددها.

هبـــت لتصلي صباح الأحد، فإذا الجالس بجوارها هو صاحب الهجرة المفاجـــئة، لمحـــته قـــبل أن يلمحهـــا، توقف قلبها للحظات ثم عاد ليعمل بصـــعوبة، فكرت، أن تفر هاربة ولكن تفر من ماذا؟ ممن؟ هل تخشى أن تـــنكأ الجـــراح؟ هل تخشى أن تفتح صفحة جديدة؟ هل تخشى ضعفاً معيناً خبرته في هذه اللحظة نفسها؟ وهل هو ضعف كامن منذ أن رحل وداهمها الآن؟ هـــل تخشى ألا يتعرف عليها؟ هل تخشى أن يقابلها ببرود ولا يحفل بها؟

حاصـــرتها كـــل هـــذه التساؤلات وكان من المنطقي أن تهرب ولكن قدمـــيها لـــم تـــتحركا، نعم لقد أصيبت بما يشبه الشلل الهستيري المؤقت. وبهـــدوء شديد يكشف عن برود في الطباع أو يكشف عن عدم دهشة لأمر تم ترتيبه عن عمد، التفت إليها وابتسم ثم استمر في الصلاة.

داهمهـــا طوفـــان الأسئلة مرة أخرى، إذن هو يعرف بوجودها بجواره قبل هذه اللحظة!! إذن هو رتب للأمر!! إذن هو يسعى خلفها مـــاذا يريد منها كيف ظهر فجأة؟ هل انتهت هجرته فجأة مثلما بدأت فجأة؟ لماذا عاد وماذا يريد منها؟ كيف ظهر فجأة هل انتهت هجرته فجـــأة مـــثلما بدأت فجأة؟ لماذا عاد وماذا يريد؟ هل يقصدها؟ وبعد انتهاء الصلاةرجاها في لقاء في الغد حدد موعداً ومكاناً، وفي الحقيقة

لم يكن رجاء بقدر ما كان تحديداً نهائياً من طرف واحد لا يتوقع أي اعـتراض مـن الطـرف الآخر. ولم تنم ليلتها، سهرت إلى ما بعد الفجر، كانت شغوفاً بمعايشة فجر هذا اليوم، أن تعيش هذه اللحظات الفاصـلة لأنها لا تعني إلا شيئاً واحداً، وهو الأمل الواعد بالسرور، أي أمل!! وأي سرور!! ماذا أريد وماذا أتوقع؟

قالـت لنفسها بصوت لا يسمعه إلا عقلها الباطن: ليس مهماً ماذا أريد وماذا أتوقع، المهم عندي هو اللقاء ذاته، بل الوعد ذاته، الانتظار، الشغف، رق الحبيـب أخـيراً بعد سبعة وعشرين عاماً، ثم جاء هذا اللقاء متأخراً، أريد أن أسبق عمري، أريد أن أرى الغد، أريد أن تطلع علي شمس النهار والفجـر مازال قائما، إنني في العشرين ولست قرب الخمسين، إنني أحب، أنني أتلهف للقاء الحبيب، ومضى الليل بطيئاً، أيضاً أبطأ ليل مر عليها.

طلـع الصـباح بـنوره فنهضت تفيض حيوية ونشاطاً، استعادت كل الأغنـيات التـي صاحبت الأيام الحلوة، تزينت، تعطرت، لم تشأ أن تخبر أحـداً ربمـا خوفاً من حسد، تصادمت عشرات المعاني في صورة كلمات تتعاقـب بسـرعةِ دورانِ شـريط السينما حتى تبدو الصورة حية وناطقة ومتماسـكة، الحـب الأول، النشـوة، الأمل، الفجر، القبلات، الأحضان، الارتعاشـات الجنسـية، الوعد بالزواج، زيارة الأسرة، والهجرة المفاجئة، الدهشة، الانتظار، الحزن، اليأس، الزواج، الأولاد، الترمل، الوحدة.

سـقطت بعض الكلمات عن عمد مثل الخيانة، الغدر، الكذب، الخداع، لم تشأ أن تفسد فرحة اللقاء.

وفـي اللحظـات الأولى من اللقاء اعترف بخطئه، اعتذر، رجاها أن تسامحه، بكى ثم أخبرها بترمله وعودته النهائية إلى الوطن، أكد لها أنه لم

ينســها لحظــة، مازلت أحبك، لماذا لا نتزوج؟ طرح السؤال أو الاقتراح بكلمــات ســريعة مضغومة سقطت بعض حروفها ربماً خوفاً من إجابة لا ترضيه انتهى اللقاء الأول بقبلة على جبينها أسهدتها ليلتين.

اللقــاء الثاني كان أكثر مرحاً وأقل قلقاً وأمعن في التذكر والاسترجاع لبعــث الحماســة في الحاضر وشحن المستقبل بالأمل، وانتهى اللقاء بقبلة علــى الشفاه طالت قليلاً إلى الحد الذي استحثت فيه بعض الخلايا لتصحو من جديد.

وفــي اللقــاء الثالــث تم الاتفاق النهائي على الزواج، تحديد الزمان والمكان والترتيبات.

عــادت إلى البيت بمزاج مختلف، استعادت كل دقائق يوم أن ضرب موعداً وأخلفه، اجتاحتها كل مشاعر الألم حين لم يفض الليل إلى فجر ولم يطلع نهار.

ســالت دموعهــا، بكــت بكت كما لم تبك من قبل بل انتحبت، علا صوتها.

حزمت حقائبها، رحلت من المدينة إلى حيث لا يعرفها أحد.

لــم يصــدق هــو أنها أخلفت الموعد، وفشلت بعد ذلك كل محاولاته للاتصال بها، فنسي.



أمي شقيقتي... صديقتي

لا تقوم لي شعرة واحدة وأنا أكذب ولا يختلج لدي جفن أما قلبي فينعم بهـدوء شـديد وكأنه مغلف بأغلظ الحجارة التي تمنعه من الإحساس بأي شـيء ويشارك صوتي في معزوفة الكذب فيتهدج تبعاً لمقتضيات المعنى ليتأثر سامعي ويقتنع بكل ما أردت زرعه داخل عقله من مغالطات.. كانت هـذه هـي براعتـي ولا أملـك غيرها، براعة إحداث تأثير عاطفي يمهد لتصديق ما أقول..

كنت أصل إلى كل أهدافي عن هذا الطريق.. وكنت أجيد فن الحكاية وأهـم مـا فـيها التشويق والإبهار، وكنت أستطيع أن أمسك بقلب وعقل سـامعي معاً مثلما، كانت تفعل شهرزاد وربما كانت تفعل شهر زاد أبرع كاذبة في التاريخ مثلما أكون أنا في الوقت الحاضر.. وحاولت أن أفهم سر ولعي بالكذب، ومن غير عناء أدركت ما كان يمتعني هو أن أرى سامعي مخدوعـاً بيـنما هو في غاية التأثر من شدة التصديق، كان ذلك يثير لدي نشوة كبرى.

وكـان ضحاياي من الرجال دائماً، أقنع الرجل منهم بأنني أحبه حب عبادة لأنه أعظم رجل في العالم.. كنت أجعل الرجل يشعر بأنه ملك متوج لـيس مـن قبله ولا من بعده.. أنه أسطورة عصره.. كان الرجل يتهاوى أمامي مثل تهاوي الأوراق الصفراء الجافة من شجرة. كان يقع في غرامي لا لمـيزة أحظـى بها ولكن لأنني سحرت لبه. لأنني نفذت إليه من نقطة ضـعف أي رجل وهي احتياجه الشديد لأن تمدحه امرأة وتعجب به وتحبه

لأنه أفضل رجال العالم. عقدة أي رجل هي إحساسه بالنقص أمام أي رجل آخر.

وأي رجـل عـنده عقدة نقص لأن هناك دائماً رجل آخر يفضله في صغر سنه أو جماله أو قوة عضلاته أو كثرة ماله أو مكانته أو عبقريته أو هذا هو المهم أو أهم من الأهم في القدرة الجنسية.. ويظن الرجل واهماً أنه إذا امتلك هذه القدرة باقتدار مطلق فإن المرأة أي امرأة ستخضع له خضوع العبيد وتتشبث به بأطراف جلبابه وتتمرغ في التراب الذي تطؤه نعلاه.

أمـا الشيء الآخر الذي يجعل الرجل يفقد عقله هو أن تمطره المرأة بالهدايـا.. إن ذلـك أقوى من امتنان امرأة لهدايا الرجل إليها.. أن تهدي المـرأة الرجل فهذا معناه أنها تستميت لإرضائه لتظفر به دون غيرها من نسـاء الأرض واللاتي يسعين لإرضائه أيضاً ولكنها هي التي تنتصر في النهاية.. وبذلك يشعر الرجل أنه محط نزاع النساء اللاتي مزقتهن الغيرة. هكذا استطعت أن أسيطر سيطرة كاملة على أهم ثلاث رجال في حياتي.. ولـم أعـرف غير هؤلاء الرجال الثلاثة لأنني بطبعي لا أميل إلى الرجال ربمـا لأن هذه الرغبة الطبيعية للجنس الآخر ماتت عندي منذ وقت مبكر مـن حياتـي. وهذا يعني أنني لم أسع إلى هؤلاء الرجال الثلاثة لأغراض عاطفـية أو جنسـية وإنما لعلاج جرح غائر ولإطفاء نار مشتعلة ولشفاء مرض عضال. لم أعرفهم لأنهم رجال يهمونني ولكن عرفتهم لأنهم كانوا يهمـون ثـلاث نساء أخريات.. وهكذا أقترب بالقارئ من المساحات غير المرئـية من نفسي والتي لا يستطيع أحد أن يراها لشدة إظلامها.. لم يكن الـرجل هـو الـذي يعنيني وإنما امرأته. وذلك من أجل أن أحطمها مثلما حطمتنـي في يوم من الأيام، كل واحدة من الثلاث حطمتني بطريقتها وفي اتجاه ما سواء إذا كانت تقصد أم لم تكن تقصد.

وفـــي الحقـــيقة أنا غير مقتنعة بمسألة القصد والنية. هذه أمور تخص الإله وحده، أما أنا كإنسانة ضعيفة فيهمني في النهاية الأثر الدامي للفعل.. ماذا تنفعني النيات الحسنة بعد أن يتم ذبحي!!

الأعمـــال بالنيات في التعامل مع الله، أما الأعمال فبآثارها في التعامل مـــا بين البشر، والنساء الثلاث قمن بذبحي ثلاث مرات حتى أجهزن عليّ تمامـــاً فصـــرت حطامـــاً لامرأة.. صرت مشوهة العقل مدمرة الوجدان. صرت ككرة النار التي تحرق كل ما في طريقها وهي تنحدر إلى أسفل، أو كـــبركان تـــم تعبئـــته حتى فاض فانفلت دون رادع.. تحول الإنسان إلى شيطان.. الإنسان في أصله خير أما الشيطان ففي أصله شر.. والسؤال هنا هـــل تـــم التحول بفعل الأحداث الجسام التي عبرت بي أم أنا التي قررت الـــتحول إلـــى الشيطان لأدمر وأحطم ولأضرب فيشقى الذين يقعون في دائرة ضرباتي الموجعة.. هل التحول من الخير إلى الشر تلقائي أم إرادي؟ هل في استطاعة إنسانٍ أن يتخذ قراراً بأن يكون إنساناً أو شيطاناً.

أقـــول الحـــق إن القرار قراري. إنني صاحبة إرادة في هذا التحول.. وهكذا كل إنسان إذا أراد أن يكون شيطاناً سيكون لينفذ مهمة لا يستطيع أن يقـــوم بهـــا إلا شـــيطان.. إنـــه شيطان بإرادته.. ولا أتصور إنساناً يولد شـــيطاناً.. أمـــا الشـــياطين غير الإنسية فيخلقها الله لغواية الإنسان.. أما الشياطين الإنسية فهي تحولات تحدث داخل النفس البشرية حين تتألم بفعل إنسان آخر.

ألـــم شديد.. ألم يعصر.. ألم لا يصدر إلا عن ذبح أي إزهاق الروح ذاتهـــا.. فكيف نطلب من إنسان أن يكون إنساناً في ظل هذا الهول.. لابد مـــن مســـحة شر تدخل نفسه ليؤلم كما تألم.. ليجرح كما جرح ليذبح كما ذبح. لا تخف حدة آلام أصابت إنساناً بفعل آخر إلا بإحداث ألم مقابل مساو

لـــه فـــي القـــوة ومضاد له في الاتجاه إنه قانون يحكم الطبيعة مثلما يحكم الإنســـان ، لكل فعل رد فعل، ولا يهمنا أن يكون الفعل الأول بقصد أو من غير قصد.

هكـــذا وجـــدت الشر يملأ نفسي ضد أمي وشقيقتي وأعز صديقاتي.. النساء الثلاث اللاتي دمرن حياتي.

أمي

امـــرأة تفـــيض حناناً ناحية زوجها يفوق حنانها ناحية ابنتها الوحيدة، ولـــذا فهي نوع مختلف من النساء.. أحبت أبي أكثر مما أحبتني، لا أقول إنهـــا لم تكن تحبني ولا تشغلني كثيراً بشكل مجرد درجة حبها لأبي ولكن المشكلة في أنها لم تترك لي ولا نافذة واحدة أطل من خلالها على قلب أبي وعواطفـــه. لقد أغرقت الرجل بحيث لم يكن في حاجة إلى عواطف أخرى حتى عواطف ابنته.. كنت كالغريب بينهما.. ما أصعب أن تكون غريباً في بيـــتك.. ما أصعب أن تشعر بأن أمك تحبك أقل.. ما أسوأ ألا يحتاج أبوك إلى حبك.. والأسوأ ألا يتاح لك التعبير عن عواطفك فتختزنها حتى تصبح عبـــئاً يثقل كاهلك.. في ظل هذا الجو تشعر بالاختناق، وكأنك على وشك الموت.. أو أنك تموت في كل يوم من جديد.

ومـــات أبـــي.. لم أحزن لموته، وشعرت بالشماتة تجاه أمي، ولأنها كانـــت صغيرة وجميلة وكانت عاشقة للحب، ولا يمكن أن تعيش دون أن تحـــب وأن تحَـــب فإنهـــا تزوجت بعد بضع سنوات.. كان رجلاً في مثل عمـــرها متزناً ملتزماً عاملني باحترام كابنته ولم يصدر عنه في أي لحظة مـــا قد يساء ظنه ربما عن خلق حميد منه وربما لأني لم أكن أحظى بأي جمـــال أو أنوثة. وتعلقت أمي به تعلقاً شديداً.. وفي هذه المرة لم يكن من حقـــي الدخـــول في منافسة معها أو الشعور بالغيرة فهو لم يكن أبي.. ولا

يحـق لـي أن أتوقع حباً أبوياً منه ولا يحق له أن يتوقع مني أية مشاعر إيجابـية ، بـل العكس فقد لا يستغرب أن أحمل له بعض المشاعر السلبية لأنه حلّ محل أبي.

واغتظـت لهذا الوضع الجديد والذي لم يُتِح لي أي حقوق مثلما كانت الحـال القديمة.. ونبتت أول نبتة شر داخلي أو أنا التي زرعتها.. فلأحرمْ أمـي من حب هذا الرجل ولأجذبْه ناحيتي.. وهداني شري إلى تلمس منفذ واه قد أستطيع التسرب منه وهو أن أحدّث هذا الرجل عن نفسه.. تدريجياً جعلـته يصدق أنه أحكم الرجال وأعقلهم.. وأنه مع ذلك يبدو شاباً وجميلاً، وأنـه جديـر بحـب الفاتنات من الصغيرات.. وأخذت أحكي له قصصاً وهمـية، كاذبـة عن فتيات صغيرات من صديقاتي تعلقن برجال في مثل سنه.. استجاب لي.. فعرفت أن نقطة ضعفه الأساسية هي جزعه من تقدم عمره.. فضربت برقة ونعومة على هذا الوتر الحساس.

وكـان لابـد أن أتقدم نحو الخطوة الأخيرة وهي أن أخضعه جنسياً.. ولكنني معطلة من قوة التأثير الجنسي.. لم أكن أملك غير لساني وروحي.. فحركتهما بحكايات مثيرة ألهبت عقله فتهاوى قناع الحكمة وتزلزل الوجدان المـتزن وخـار الجسد المتماسك فسقط الرجل سقطة مدوية. وهنا شعرت بأننـي انتزعت سكيناً من تلك التي غرست في صدري وأعدت غرسها في صدر أمي..

وكـان لابـد مـن ذبحها فدبرت موقفاً جعلت من يشاهده يتصور أن الـرجل يحاول اغتصابي فطلقته وعاشت منطوية على أحزانها تنزف دماً من روحها المذبوحة.. وأي امرأة من الممكن أن تتعرض لهذا الموقف. قد تسامح. إلا إن هول الموقف كان من ابنتها. ولذا فالذبح الحقيقي تم على يد ابنتها وليس على يد الرجل الذي خانها.. لقد انتصرت الابنة.

شقيقتي

من الطبيعي أن تكون هناك فتاة جميلة وأن تكون شقيقتها أقل جمالاً. ولكن المزعج أن تكون إحداهما فائقة الجمال والأخرى فائقة الدمامة. كان الجميع يشهقون لرؤية شقيقتي ويشيحون عند رؤيتي. أدركت ذلك منذ طفولتي المبكرة فكرهت الناس أكثر مما كرهت شقيقتي. إنه الظلم بل عدم الإنسانية لدى معظم الناس بل كل الناس.. هكذا الناس.. جريمة شقيقتي لم تكن بسبب جمالها ولكن لأنها جعلتني أكره الناس وأرى طبيعة البشرية كأسوأ ما تكون.. كانت متفائلة وكنت متشائمة.. كانت حسنة النية وكنت سيئة النية، كانت ترى البشر أخياراً وكنت أراهم أشراراً.. لقد تلوثت روحي بسبب الشر.. وكان أسوأ الناس هم الرجال الذين يتساقطون على قدمي شقيقتي بلا كرامة يتملكهم سُعَارٌ ليس جنسياً بقدر ما هو فني، كانت شقيقتي أجمل لوحة من الممكن أن تقع عليها عين إنسان. وقبلت شقيقتي خطبة فنان رأى فيها أنها تمثل أقصى درجات الجمال المطلق والذي من الممكن أن يتجسد إما في الطبيعة الربانية أو على يد فنان مقتدر.. وهذا هو الذي ذبحني حقيقة.. إلا أن شقيقتي كانت تملك قدراً من التعالي جعلها شحيحة في الإعجاب بأعمال زوجها الفنية.. ولاح لي المنفذ.

قرأت كثيراً حتى يكون لآرائي وزن.. كلمته عن فنه وعن فن الآخرين، أتقنت فن الكذب، وتذكرت قولاً عن أن أعذب الشعر أكذبه.. فقلت له إنه أعظم فنان في العالم، بل هو ملهم من السماء مباشرة.. واستسلم كطفل لكلماتي وانتفخ سروراً وامتلأ اعتداداً بنفسه وعزفت نفسه ألحاناً راقصة جعلته يمشي زهواً ويتحرك اختيالاً.

وكان لابد من الخطوة الأخيرة لكي يسقط، وكيف لي أن أسقط فناناً هو أقرب للرومانسية وبعيد عن حيوانية الجسد.. وتفتق عقلي أن أربط له

مـــا بين إبداعاته الفنية وبين العشق الجسدي. وأن في الجنس جمالاً يكشف عن رغبة عارمة للأرواح لكي تتلاصق.. وحاول أن يلصق روحه بروحي التي ادعت تشوقها له، أعقبها سقوط حين التصقت الأجساد.

ودبـــرت موقفـــاً جعلـــت من يراه يظن أنها محاولة اغتصاب. طلقته شـــقيقتي وعاشت وحيدة تجتر أحزانها، لم يكن ألمها الأعظم بسبب خيانته فهـــذا أمـــر معـــروف عن الرجال ولكن لأن ذلك كان مع شقيقتها. وهكذا انتزعت السكين الثانية من روحي وغرستها في روح شقيقتي.

صديقتي

قـــد تمـــتلك المرأة جمالاً يأسر القلوب، وقد تمتلك أنوثة تهز الأبدان، ولكن تظل الروح المرحة البسيطة المتوثبة الذكية المنطلقة هي التي تفرض عبيرها على كل كيان الرجل فتمتلكه، شيء ما يشع من داخل المرأة يمسك بتلابيـــب روح الـــرجل فلا يملك الابتعاد عن هذه المرأة.. إنها المرأة التي تتمتع بعذوبة خاصة وليس جمالاً خاصاً وأنوثة خاصة.. إنه سر المرأة إنه ســـر الـــربط الفوري بين قلبي رجل وامرأة. هكذا كانت صديقتي.. وكنت أشـــعر بأنني ألهث من خلفها وكأنها كانت تجري وكنت أحاول اللحاق بها كانـــت مـــتقدمة عني كثيراً، كانت المسافة بيننا شاسعة. ربما آلاف الكيلو مـــترات.. أين أنا منها.. وأينما كنا معاً كانت كل أرواح الرجال تحوم من حولهـــا بيـــنما لا يراني أحد، كانت تسحق وجودي سحقاً، لقد محتني هذه الصـــديقة.. لم يكن ذنبها ولم يكن ذنبي، ولم يكن مبرراً لي لأسامحها.. أنا لا أحاسب الناس على نياتهم ولكن أحاسبهم بما تركوه من أثر على حياتي ســـواء بقصد أم بدون قصد.. أنا لست من الآلهة، أنا إنسانة عادية حرمها الله من جمال الروح. وتزوجت صديقتي من رجل أعمال لعله تصور أنها ستملأ حياته بالحركة والتدفق والحيوية مما يتيح له نجاحاً أكبر في أعماله.

وربمـــا لأنها كانت تشعر بانعدام إمكاناتي في المنافسة فقد قربتني من حـــياتها كثيراً.. ومن خلال ذلك عرفت نقطة ضعف هذا الرجل وهي أنه يـــرى أن الـــتقدير المـــادي خير تعبير عن الإعجاب الشخصي.. وتعمدت إهـــداءه ســـراً أثمـــن الهدايا التي كلفتني كثيراً، ولكنْ كلُّه يهون في سبيل انتزاع السكين الثالث.. ومسألة إعطائه الهدية سراً كان لها طعم خاص، إذ كانـــت تحمـــل معاني خفية بالإعجاب الشخصي ومحاولة مد جسور غير مرئـــية تحقـــق مزيداً من الاقتراب والتقارب كان يطير في السماء مع كل هدية.. وأصاحب ذلك بامتداحي لذكائه وعبقريته.. ورغم محدودية قدراته العقلـــية إلا أنـــه صدق أنه أذكى رجل في العالم.. وكان لابد من الخطوة الأخـــيرة المحتدمة ليسقط ثم تسقط هي من بعده وتنتهي علاقتهما، فدبرت موقف اغتصاب فطلقته..

وقالت ضمن ما قالت لو أنه أنشأ علاقة مع امرأة أخرى غير صديقتها لغفـــرت له ، أمـــا أن يتدنى لمحاولة علاقة مع صديقتي فمن المستحيل أن أســـتمر معه.. كانت نشوتي الحقيقية ليس خراب بيت صديقتي، ولكن لأن هـــذه المصيبة حطت عليها بفعل يدي. أنا التي فعلتها مثلما فعلتها مع أمي وشـــقيقتي، أنـــا الشـــر، أنا الشيطانة، أنا القوة التي لا تقهر، أنا التي أذلت الرجال وأركعتهم وأنا التي أحرقت قلوب النساء اللاتي قضين بإعدامي.

ولكن ماذا بعد؟ ربما لا شيء .. وماذا سيكون موقفك من الرجال؟

ربمـــا أحـــاول أن أحســـن من نفسي لكي يعجب بي رجل بحق بعد تطهـــري من شروري بالرغم من أنني لا أميل حقاً إلى الرجال، ربما لأنه تم الإجهاز عليّ مبكراً..

بكارة الإحساس

الأعاصير لا تهزم الجبال بل تتكسر على جنباتها وتتشتت مرتدة بالخيبة، وبعض الرجال كالجبال لا تهزهم المحن، بل تشد من أزرهم وتزيدهم قوة وصلابة، ولا ينحنون جزعا ولا يتراجعون خوفاً، ولا يبكون ألما، وإنما يواجهون ويعقلون ويتدبرون ويقدرون، وبعد القرار يأتي الفعل من نبع الحكمة، هكذا بعض الرجال، رجال كالجبال، الجبال ذات الأوتاد الراسخة في الأرض، ولم نسمع عن جبل انهار أمام إعصار، إلا أننا سمعنا عن رجل دكته مشكلة رغم أننا كنا نظنه جبلا أو هو كان كالجبل فعلا، هذا هو الاستثناء فبعض المشكلات كالأهوال لا قبل للإنسان بتحملها مهما كان قويا، مهما كان جبلا، جبلا حقيقيا وليس كجبال رمال الشاطئ التي تسقطها نفخة هواء من فم طفل إذن المشكلة في طبيعة المشكلة ذاتها، ويا لعجب قانون النسبية حيث يقاوم الرجل كالجبال إعصارا ولا يستطيع أن يقاوم مشكلة، مشكلة ذات طبيعة خاصة، مشكلة تذبح كالسكين، مشكلة كالمعول الذي يكسر الجبل قطعة قطعة مهما كانت صلابته. والقصة نستطيع أن نسردها في بضعة سطور قليلة وأما ما أعتمل في النفوس وقوض الظهور وجرح القلوب وأبكى العيون وضيق الصدور وكسر الكبرياء فإنه يحتاج إلى مداد بحرين وليس بحرا واحدا.

والقصة أن شابا فاضلا بكرا تزوج من فتاة فاضلة بكر، ومضى ثلاثون عاما ظلت المودة والرحمة عليهما، حجا واعتمرا عشرات المرات، آنست الصلاة ليليهما، وشرحت كلمات الله صدريهما وهما يستقبلان كل

فجر، أصبح لهما من الأبناء والبنات أربعة وضعف هذا العدد من الأحفاد، وداهمهما إعصار مفاجئ وكأن الزمن أراد أن يريهما الوجه الآخر كفاهما ثلاثون سنة سعادة دون أي كدر، فأصيبت الزوجة بمرض الاكتئاب، وفي الاكتـئاب تجتاح المريض مشاعر الذنب والإثم والندم ويعترف بأخطاء أو جـرائم ربما لم يقترف بعضها ويبالغ في البعض الآخر، اعترفت الزوجة المريضـة لزوجها بأنها تعرضت لبعض المداعبات الجنسية السطحية من خطيـبها الأول الـذي لم يشأ الله أن تستمر معه، وإنها استغفرت وجاءته طاهرة وعاشت معه على الطهر والعفاف حتى هذه اللحظة، وحين بلغ بها الاكتـئاب مـداه حاولت الانتحار تكفيرا عن ذنبها فأسرع الطبيب بالعلاج الكهربائي وشفيت سريعا بحمد الله ونسيت اعترافاتها لزوجها، فالأمر بحق كان بسيطا وتافها ولا يزيد على أي ملامسات تحدث بين خطيبين.

ولكـن الزوج لم ينسَ ومن هنا تبدأ القصة التي تحكي عن الأعاصير التي اجتاحت هذا الرجل، وهو رجل ليس ككل الرجال، رجل صُلب حكيم حلـيم مؤمـن مـثابر كـريم متسامح، وعدّد ما شئت من الصفات النبيلة والسـمات الحميدة التي من الممكن أن تصف بها رجلا لتصل به إلى حد الكمال حتى تقف عند نقطة وتقول إن الكمال لله وحده.

إذن لا بـد من أن تكون هناك نقطة ضعف في منطقة ما إلى مصاف البشر حتى ولو كان أفضلهم، نقطة ضعف أو بؤرة حساسة أو عيب خُلقي أو مكتسـب، هكـذا تستطيع أن تسقط أي إنسان مهما كان أقوى الأقوياء، وهي أن تنفذ إليه من نقطة ضعفه.

ونقطـة ضـعف هذا الرجل أنه كان يحب زوجته حبا جارفا ما وهن لحظة منذ زواجهما، وأهم شيء كان يحبها من أجله هو طهارتها وبراءتها،

هــو بكارتهــا بمعنى أنه لم يخطر على بالها ظل رجل، لم تنفعل بإنسان غــيره، ألبوم صورها لا تحتله إلا صورة رجل واحد هو ذاته، نقية كهواء الجــنة، عفيفة كأي من أمهات المؤمنين، طاهرة شريفة، بكر كطلعة النهار الأول علــى هــذه الدنيا، لم يلمسها بشر غيره، لم يحرك غرائزها إنسان ســواه، إنــه الأول الأول الأول، وليس من قبله أو من بعده، وكان الخيال يجــنح به في أحوال كثيرة فيظنها ملكا من السماء أتت خصيصا لتتزوجه لأنــه رجل ليس ككل الرجال، رجل بكر مثلها، لم يعرف امرأة، لم تتحرك غرائــزه تجاه امرأة قبلها، بل لم يعبر ظلُ امرأة خياله قط رآها لأول مرة فأكبرها فأحبها فتزوجها فصانته وصانها، كان فخورا ببكارته وكان يعتبر نفسه أكثر الناس حظا لبكارتها.

بكــارة الانفعال والإحساس وحتى بكارة الخيال، وكان أكثرُ ما يمتعه في حياته مع زوجته هو تلك الأحاسيس العذبة بالطمأنينة التي كانت تشغل كــل كــيانه ولــذا كان ينام نوماً لذيذا وعميقا وما استيقظ يوما إلا منتعشا يفــيض بالحيوية والنشاط محبا للحياة إلى حد الولع، كان سعيدا حقا، وكان يدرك أن المصدر الحقيقي لسعادته هو نقاء زوجته، وكانت متعته معها في الفــراش لا تدانــيها متعة إذ لم تكن جنسا خالصا إنما كانت أيضا عاطفة فياضة.

بــل كان الموقف في حد ذاته يبهجه، أي فكرة أنه يمارس الحب مع زوجــته، الفكــرة في حد ذاتها لا تقل متعة عن الممارسة، والفكرة بمعنى المعــنى، أي أنهما معا، وكانت فكرة الطهارة أكثر ما تسيطر عليه في هذه اللحظات بل أصلا هي فكرة البكارة التي انبثقت منها الطهارة، وكأنما كان يسعد في كل مرة حتى بعد ثلاثين عاما من الزواج أنه الأول والأخير، أي

أن هــذه المــرآة لم تنفعل برجل غيره، إن هذه الشريفة العفيفة لم يلمسها رجل غيره، ولهذا كان لعلاقته الجنسية بها مذاق خاص. ولا نملك أن نعلق علـــى أفكار هذا الرجل أو ننتقد مشاعره، فهكذا صِيغ عقلُه، هكذا تشكلت مفاهيمه ولا ندري من أي منبع.

بـــالقطع لم يكن الدين فقط هو المنبع الوحيد، وبالقطع لم تكن الأفكار الســـائدة في مجتمعه الصغير الذي نشأ فيه والتي تؤكد على أهمية الشرف والطهارة وحيث كان مفهوم البكارة يؤخذ فقط بالمعنى المادي وخاصة لدى الفتاة، وكانت طقوس ليلة الزفاف تدور كلها حول إثبات هذه البكارة المادية الدمويـــة. أمـــا بكارة الرجل فلم تكن أبدا ذات بال ربما لأنه لم يكن هناك شـــيء يثبـــتها مـــثلما هـــي الحال لدى الفتاة، إذن من أين جاءت مفاهيم ومعتقدات هذا الرجل عن بكارة الإحساس؟ كيف تَرسّخَ في وجدانه العشقُ المتناهـــي لبكارة الانفعال الجنسي حتى تصبح المرأة التي تمس لأول مرة ليلة زفافها ، وكأنها أميرة الأميرات، بل الملكة المتوجة؟

إنـــنا لا نســـتطيع أن نجيـــب بالـــتحديد عن مثل هذه الأسئلة المتعلقة باستقصـــاء المنـــبع للأفكار والمشاعر وبالذات عند هذا الرجل لأن هذا قد يكـــون مغروسا في الأغوار البعيدة للنفس أو الثنايا التي لا ترى في العقل الباطن. إذ هو ذاته ربما لا يدري شيئا عن منابع وروافد أفكاره وعواطفه.

وربمـــا أقول لمجرد الاجتهاد إن الأمر لا يتعلق عنده أساسا بالبكارة بقـــدر ما يتعلق بإحساسه بذاته، بثقته بنفسه بقدرته على تحمل المنافسة أو بـــأن يكـــون محل مقارنة مع رجل آخر، إذن ربما يكون هذا الرجل لديه مشـــكلة مـــع الرجال الآخرين، وهذا بلا شك يجرنا إلى عقدة أوديب حيث يدخـــل الطفـــل فـــي صراع مع أبيه ليفوز بأمه، إلا أن الأب ينتصر في

الاستحواذ على الأم فيعاني الطفل الإحباط والإحساس بالعجز، ويصبح أي رجـل آخر مثل أبيه أي مصدراً للخطر ، خطر الفوز بالأم أو بمعنى آخر الزوجة، وينشأ الصراع ، صراع على مستوى العقل الباطن، وتنشأ مشاكل الغـيرة والشـك والشـذوذ، إلا أن هذا كله يتعلق بالمستقبل، أما في حالة صـاحبنا بطـل قصـتنا فإن الأمر يتعلق بالماضي، ربما لأن الاطمئنان للماضي يجعلنا نثق بالمستقبل.

لكن لماذا نحاول أن نجد تفسيرا مَرَضياً لكل ظاهرة إنسانية؟ لماذا لا نقـول أن هذا الرجل رومانسي وخيالي وهو ذاته رجل نقي، بل هو رجل بكر لم تلمسه امرأة ولم تحرك غرائزه امرأة، بل كانت زوجته هي الأولى في حياته، فلماذا ننكر عليه أنه يريد أن يكون الأول في حياة زوجته؟

ففاجـأت الـزوجة زوجهـا بهذا الاعتراف وهي مريضة، ثم شفيت ونسـيت مـا قالـت لأنه أمر تافه ليست له أي أهمية ولم يَعْلَق بإحساسها ونسـيته تماما بعد انفصالها عن خطيبها الأول، بل لا يمكن أن ندينها بأي شيء لأن قرانها كان معقودا على هذا الرجل.

ومـن الوجهـة الشـرعية كان زواجا إلا أنه لم تحدث بينهما إلا هذه العلاقة الجنسية الوحيدة إذن أين المصيبة ولماذا انهار الزوج إلى هذا الحد المصـيبة هي أن هذه الزوجة جاء ضمن اعترافاتها أنها انفعلت جنسيا في هذه اللحظات وبذلك تكون قد فقدت بكارتها الحسية، إحساسها لم يعد بكرا، لقد تحرك هذا الإحساس باللذة، إذن لقد هدمت كل شيء أقام عليه مشاعره نحوهـا، وأقام عليه عبادته لها، وأقام عليه الفرحة والفخر والتيه والزهو، وأقـام عليه كل مستقبل علاقته بهذه المرأة والتي استمرت ثلاثين عاما من السعادة الخالصة.

إذن لقــد عاش الوهم، إن العائش في الوهم غير العائش في الحقيقة. وواجـــه نفســـه بصراحة أكثر فقال عن حياته معها أنها لم تكن زيفا وإنما كانـــت وهمـــا، وهناك فرق بين الزيف والوهم، الزيف هو الغش والخداع والتضـــليل، أما الوهم فهو من صنع الخيال، والوهم هو رؤيا غير حقيقية ولكنـــنا نصـــدقها، إذن أساس الوهم هو صدق، أنت حين تتوهم شيئا تكون صـــادقا فيما تحس وترى وتعتقد فيه بالرغم من عدم صحة ما تتوهم، شيئا تكون صادقا فيما تحس وترى وتعتقد فيه بالرغم من عدم صحة ما تتوهم، والوهم قد ينشأ من المرض أو من البراءة ولا سبب ثالثا. وعاد يسأل نفسه هل كنت مريضا أم بريئا؟

أصـــيب الزوج بالاكتئاب، امتنع عن الطعام، فقد وزنه، أهمل عمله، فقد حماسته، ولكنه أبدا لم يسئ معاملتها ولكن بتاريخها الطويل معه فهمت، وحاولـــت أن تشرح له الأمر من جديد أنا لم أخنك، إن ذلك كله حدث قبل أن ألقاك، وكان الرجل الآخر زوجا لي، ولكنه ضغط على ومسني، كانت المـــرة الأولـــى والأخيرة، ومن قبله لم يلمسني أحد، ومن بعدك لم يلمسني أحـــد، ولم يخطر على بالي قط رجل في حياتي، بل أستطيع أن أقول إنك الرجل الأول في حياتي لأن ذلك الرجل الآخر لم أحبه. ولكن رغم إرادتي انفعلـــت جنســـيا حيـــن لامسني لأنني بشر، أنا مصنوعة من لحم ودماء وأعصاب، هي التي استجابت وليست مشاعري، جسدي هو الذي استجاب وليســـت روحـــي، صـــدقني لقـــد جئتك بكرا بمشاعري، ربما لست بكرا بأحاسيسي الجسدية لكن بكرا بأحاسيسي المعنوية.

شفى من اكتئابه ولكن مشاعره ناحيتها لم تبرأ، بل مشاعره نحو الحياة كلها ظلت فاترة فقد حماسته لكل شيء، لم يعد يقربها جنسيا، بل أصبح ينام

فــي غــرفة منفصلة، ولكنه أبدا لم يسئ معاملتها، ظل هادئا مسالما مهذبا وكريما في علاقته بها لكن قلبه توقف ومشاعره تحجرت وأحاسيسه فترت حتى الموت. وتدريجيا بدأ يستعيد حيويته ولياقته عاد إلى نشاطه وحماسته للعمل وللأصدقاء ولكل شيء في الحياة إلا هي ظلت مشاعره ميتة تجاهها.

إلا أنه ظل رقيقا ودودا معها، إنها مودة الصديق أو الشقيق أو الأب، ولكن أبدا ليست مودة الزوج. وتألمت هي ألما شديدا، أحست بفداحة الفقد، وعاودهــا الاكتئاب، ولم يُجْدِ معها العلاج هذه المرة، وأخذت في التدهور الســريع، وذات صباح غير طيب وجدها ميتة في الفراش، وحار في أمر موتها هل كان انتحارا أي بيدها أم بيد الله.

حــزن حــزنا طبيعــيا مثلما يحزن أي زوج على فراق زوجته التي عاشــرته ســنين طويلة، وتدريجيا خرج من حزنه وعاودت الحياة سيرها المعتاد.



أسطورة من جنوب الوادي

الـتوغل صوب الجنوب هو رحلة في عمق التاريخ حيث العبق الذي يفـوح مـن ثنايا سنوات تمتد إلى الوراء بضعة آلاف لتكشف عن سمات أصـيلة هـي صلب جوهر إنسان هذا المكان. وربما هي سمات مرتبطة بالإنسان كإنسان لا تتزحزح عن موقعها في سياج الخلق الكريم الذي فطر الإنسـان علـيه. ولذا لا يختلف إنسان اليوم عن إنسان الزمن البعيد حيث ورث السـلف عن الخلف جينات محملة بعقائد ومفاهيم ومشاعر وأسلوب حياة.. يكاد الأمر يكون استنساخاً من شدة نقاء العنصر حفاظاً على الأصل وضـمانا لعدم ضياع هرم القيم الذي يمثل الحصن للدفاع عن إنسان اليوم والغد وكل غد إلى يوم الدين.

وإذا شـددت الـرحال فأنصحك بالوصول إلى آخر بقعة مباركة من جـنوب الـوادي حيـث السمرة الداكنة والقلب الأبيض.. وإذا حاولت أن تخترق الزمان فأنصحك بالعودة إلى الوراء عدة آلاف من السنين لتطالعك حضـارة هـي أهـم الحضارات وتواجهك أساطير من الحكمة والبطولة والحب. ولنفترض في رحلتك عبر الزمان والمكان أنك قابلت إنساناً ما بنى بيـتاً صـغيراً علـى شـاطئ النهر تطل عليه مباشرة سلسلة متعاقبة من الجبال..

المسـافة مـن حافة النهر إلى سفح الجبل لا تتجاوز عدة أمتار قليلة زرعها الرجل طعاماً لأسرته وما تبقى يذهب به إلى السوق ليبيعه ويشتريَ

بثمنه ملابس وعطوراً رخيصة لزوجته وحلوى لطفليه. وهذا الرجل كل ما فـيه أصيل ابتداء من لون بشرته وانتهاء بلون قلبه.. ورغم سطوة الدولة في هذا الزمان إلا أنها تغافلت عن هذا الرجل وأمثاله ممن افترشوا أجزاء هذا الشريط الضيق وزرعوه ليعيشوا.. وبجانب الزراعة كان يقطع بعض الحجـارة مـن باطـن الجبل ويسويها في أشكال هندسية عبقرية ويبيعها لأصـحاب الحاجـة. ولم يكن غريباً أن يتميز رجل بسيط مثله في تقطيع الحجـارة فهو من سلالة حضارة اهتمت بالحجر وسجلت تاريخها عليه.. هـذا الرجل نما في حضن الحضارة إلا أنه كان عازفاً عن الاختلاط ببقية الشـعب فـلا يرتاد المعابد ولا يشارك في الاحتفالات الدينية ولا يحرص على حضور موكب الملك.

عـاش ليعمل وليعبد الإله. وكان على يقين من أنه إله واحد .. يقين جـاءه مـن تأملاته وقناعته الشخصية. وبحدسه الشخصي أيضاً آمن بأن هناك حياة بعد الموت وذلك زاده خشوعاً.. كان صبوراً وقنوعاً.. يومه يبدأ مـع أول شـعاع شمس وينتهي بأفولها. عمل مستمر بكده فقط ورفض أن يعمـل فـي المديـنة وأن يكون من حراس الملك فالعمل في أي مكان هو العمل.. وهو يعشق العمل.. يحب أن يكون مسئولاً..

ثم نأتي إلى البعد الثالث في شخصية هذا الإنسان وأي إنسان في هذا المكـان مـن قديم الزمان فسنجد أنه يحب أسرته حباً جماً ويحرص على تنشـئة أطفاله على حب العمل وعبادة الإله الواحد.. فهو لم يعرف الخيانة أبداً. والمتعة الكبرى بعد متعتي العمل والعبادة هي معاشرة زوجته.

ولنتتـبع يوماً في حياة هذا الرجل فسنجده يصحو حين يتشرب الندى أول شعاع ضوء، فيهبط به إلى عينيه فتتململان فيقوم نشيطاً.. أما إذا كان

محتمـــياً بكوخـــه الصـــغير من شدة البرد فإن أصوات طيوره توقظه عند الفجـــر. يتعـــبد ثم يأكل ثم يعمل دون توقف النهار بأكمله. وعند الغروب يتوقف فيتعبد مرة أخرى ويأكل ثم ينام مع زوجته.

ولنـــتحدث قليلاً عن زوجته فهي امرأة رائعة الجمال تجيد ببراعة فن تخطـــيط العـــيون والشـــفاه وحياكة الملابس ذات الألوان الزاهية والتحمم اليومـــي ثـــم لابد من استخدام العطر الذي تحرص على اقتنائه ويحرص زوجها على شرائه لها من السوق..

وكانـــت تجـــيد الغـــناء بصوت رخيم جميل يدخل السرور إلى قلب زوجهـــا.. وفي زمانها كان الزوج يأتي في المنزلة التالية بعد الإله ويكون له نصيب من الطاعة والعبادة.

ولشـــدة مـــا كانت هذه الزوجة معجبة بزوجها فهو رجل حقيقي بكل معـــنى الكلمـــة.. والـــرجل الحقيقي في هذا الزمان هو الذي يعمل ويتعبد ويتفانى في حب أسرته.. ولقد زاد إعجابها به حين علمت منه أنه يعبد إلهاً واحداً في وقت تعددت فيه عبادة الآلهة.. وكان ذلك هو الشيء الوحيد الذي يعكر على هذه الأسرة صفوها، إذ كانت تخشى أن يفتضح أمرهم ويعرف الملك أنهم من غير المؤمنين بآلهته فينكل بهم جميعاً.

وجـــاء وقت الكدر وكأنه من المستحيل أن ينعم الإنسان في أي مكان وفـــي أي زمان بالصفاء المتواصل.. فتواصل الهناء من المستحيل، فلتهبي يا رياح الغضب لتقتلعي هذا البيت الآمن السعيد الذي لا ترتكب فيه خطيئة واحدة، ولذا يقال أن الكدر لا يأتي عقاباً وإنما يأتي امتحاناً.. وأحياناً تكون الامـــتحانات قاســـية تعصف بكل شيء فلا تبقى ولا تذر والعياذ بالله. جاء رجال الحكومة بغتة ذات صباح ليطلبوا منه مغادرة المكان والانضمام إلى

فـريق العمل الذي سيبني بيتاً أبدياً للملك. إذن سينتزعونه من بيته وأرضه وأسرته وإلهه.. ماذا سيبقى إذن.. إن الموت أكثر رحمة.

اعترض ورفض فصفعه الجندي على وجهه وقيده بالسلاسل وسجنه. وبيـنما هـم يجرجرونه من بيته لاحظ نظرة استباحة من الجندي لزوجته فـتقطع قلـبه إربـاً.. وكل قطعة مذبوحة كانت ترمز إلى شيء: العمل- العـبادة- الأسرة- الكرامة- الشرف، وكل واحدة منها لا يدفعها إلا الموت أي يمـوت هـو في سبيلها، الرجل الحقيقي هو الذي يذود عن عمله وعن إلهه وعن أسرته وعن كرامته وعن شرفه، وكلها أشياء أهدرت.

وحاول الجندي مع الزوجة ولكنها أبت فعذبها وسجنها فلم تلن. الموت أحـب إلي من إهدار شرفي. انتحرت. وتجسدت روحها في يمامة طارت إلى سجن زوجها فتعرفها.. ظلت تزوره في السجن يومياً وتغني له إلى أن أفـرجوا عنه وساقوه قهراً ليسهم في بناء بيت الخلود للملك. وصمم على الانـتقام، أيقـتل الجـندي أم يقتل الملك؟ أيهما أكثر ظلماً؟ أيهما المسئول الأول؟ ووصـل إلى قناعة أنه لولا الملك لما استطاع الجندي أن يمس بيته أو زوجته. البيت ما أحلى البيت..

والـزوجة ما أحلى الزوجة. من لا بيت له فهو ضائع، ومن لا زوجة له فهو بائس.. وأي زوجة، إنها الزوجة الجميلة العفيفة.. وأي بيت !! إنه الـبقعة المطهرة في حضن الجبل على ضفاف النهر. وكان عليه أن يتحين الفرصـة لينال من الملك. وهذا أمر يكاد يكون مستحيلاً.. إلا أن الحياة لا يمكـن أن تستمر دون أن يحمل في داخله التصميم على الانتقام ليس مهماً أن يـنجح ولكـن المهـم ألا يتخلى عن تصميمه ليكون هناك مبرر أوحد لاستمرار الحياة. لا يمكن لحياة أن تستمر دون وجود مبرر لاستمرارها..

والمبرر الأعظم هو أن تكون لك رسالة.. ورسالتي هي تطهير الأرض من ظالم لابد من عقابه.. ليس مهماً أن تحقق رسالتك ولكن المهم هو أن تسعى لتحقيقها ، ليس شرطاً أن يكون هناك أمل في التحقيق.. قد يخيب مسعاك، قد تفشل، قد تموت قبل أن تصل إلى هدفك، قد يتمكنون هم منك ويقتلونك. كل هذا ليس مهماً، المهم هو التصميم على شيء نبيل.

المهـــم هو إرادة السعي الشريف المهم هو رفع راية النضال من أجل الحـــق. المشكلة ليست في من سنعاقب.. المشكلة ليست في الملك الظالم.. المشـــكلة فينا نحن.. المشكلة هي مشكلتي أنا.. ليس مهماً أن يموت الملك الظالم في النهاية، لكن المهم هو أنني سعيت لقتله، إن التطهر الحقيقي يبدأ من عند هذه النقطة المهم هو أنني قايضت حياتي بشرفي.. قايضت حياتي بالدفـــاع عـــن بيتي.. قايضت حياتي بالدفاع عن كرامتي.. وقد أموت وأنا أســـعى.. وقد يفلت الظالم وينجو من العقاب.. ولكن سيأتي من بعدي من سيمشـــي فـــي نفـــس الطـــريق لينتقم من ظالم آخر.. وقد ينجح وإذا نجح فالمعنى تحقق وهو نصرة الحق..

ولكـــن هناك معنى آخر قد تحقق منذ أن صمّم صاحب الحق على أن ينـــتقم مـــن الظالم.. معنى آخر تحقق حتى وإن فشل.. هذا المعنى هو أن إرادة الانتصـــار للحق والتصميم على الذود عن الشرف والكرامة والبيت والعقـــيدة لا يمكن أن تخبو أو تضعف أو تموت.. هذا في حد ذاته انتصار للحـــق وهـــزيمة للظلـــم.. لأن الدفـــاع عن الحق هو قمة الشجاعة.. هو المقايضـــة على الحياة.. هو الترحيب بالموت.. هو سعادة الاستشهاد.. أما الظالم فهو جبان.. يخشى على حياته.. يختبئ وراء الدروع ليتسلح بالحديد والنار.

عملــت باجــتهاد حتى اشتهرت بأنني أفضل البنائين للصرح الكبير، وطـــارت ســـمعتي إلى الملك فأراد أن يقابلني.. واتفقت مع زوجتي التي تجســـدت فـــي صورة يمامة أن تحمل سكيناً وتطير به وتقذفه أمامي حين أقـــابل الملك لألتقطه وأغرسه في قلبه وكان قد مضى على طردنا من بيتنا وانـــتهاك شـــرفنا وكرامتـــنا عشـــرون عاماً.. هكذا حملت تصميمي بين ضـــلوعي عشرين عاماً.. وهكذا ظلت يمامتي تغني لي أنشودة الصبر كل مساء وهي تحط على نافذتي.

وحانـــت اللحظة الحاسمة لحظة المواجهة المباشرة بين الحق والظلم، واســـتجمعت كل التاريخ في يدي السمراء من شدة شمس الجنوب، الخشنة من تقطيع الحجارة، المتشققة من فلاحة الأرض الحنون ، من قطف الثمار ووضـــعها فـــي فم أفراد أسرتي.. كل التاريخ في هذه اليد.. وهذا التاريخ يفرض على هذه اليد أن ترتفع بقوة لتحطم رمز الشر والظلم.. هذه اللحظة تـــروي عـــن تـــاريخ الجنوب منذ أن كان ويكون وسيكون.. أمس واليوم والغـــد. بوغـــت الملـــك وأنـــا أغرس السكين في عنقه، وتحشرج صوته بالســـؤال.. لماذا؟ أجبته لأنك ظالم.. لقد أخطأت حين أتيت بواحد من أهل الجنوب ليبني لك مقبرتك تحت تأثير القهر والظلم.

قـــبض الحراس على وعلى اليمامة.. وذبحوها ثم ذبحوني بينما كانت أعـــلام الشرف والكرامة ترفرف في السماء. وعادت روح زوجتي لتسكن جسد يمامة وسكنت أنا أيضاً جسد يمامة.. وطرنا معاً حيث كان موقع بيتنا وبنيـــنا عشاً فوق شجرة. وعاودنا العمل بجد واجتهاد. نستيقظ عند الفجر وننام عند المغرب.. ولم نفقد متعة أن ننام معاً مثلما كنا نفعل ونحن بشر.. وأعمق المتع كانت التسبيح بحمد الله.

أسطورة من قلب أسطورة

أن يصدقك إنسان وأنت كاذب فهذا لا يعني براعتك، لكن لأن الطرف الآخــر يــريد أن يصـــدق. فكذبتك التي اخترعتها هي المخرج الوحيد له وحينــئذ لا يملك إلا أن يصدقك حتى وإن كان جزء من وعيه يعرف أنك تكـــذب.. بل حتى إن كان كل وعيه يعرف أنك تكذب في هذه الحالة يلغي نصف وعيه غير المصدق بل هو على استعداد لأن يلغي وعيه كله لأنه لا يريد أن يواجه نفسه بالحقيقة.

فالحقيقة تؤذي مشاعره، أو الحقيقة تفسد عليه ما يريد، أو الحقيقة تسد كــل الأبواب أمامه ولا يبقى له إلا اليأس. إذن أنت تكذب وأنا أعرف أنك تكذب لكنني أصدقك لأدافع عنك ضد كل من يتهمك بالكذب. وهكذا الحال مــع النصـــب والاحتيال والغش والخديعة. ولذا فلا توجد ضحية. وإذا لم توجـــد فلا يوجد جان بالرغم من أن الجريمة قد اقترفت، أي تم النصب أو الاحتـــيال أو الغش أو الخديعة. أو فلنقل إن الضحية.. الضحية هو شريك الجانـــي أو شـــريك المجرم.. إذ هو جان ومجرم.. وبذا تنتفي عنه صفة الضـــحية.. الضحية هو من اعتدى عليه ضد إرادته بينما هو يقاوم أو يرد العدوان انتقاما.

وتجـــرى لغـــة خاصة وحوار خاص بين الكاذب وبين الطرف الآخر الذي يصدقه، وهذا الحوار مؤداه أنني أعرف أنك كاذب وأنت تعرف أنني أعــرف أنـــك كـــاذب والذي يدفعك إلى استمرار الكذب والتحدي هو أنك

تعرف أنني أحتاج إلى هذه الكذبة.. ولذا فإنني استطعت أن أقنع نفسي بأنك لا تكـذب.. أنـا لا أصدقك.. وإن لم أصدقك فسوف أنهار لأن هذا معناه انعـدام الأمـل فلابد أن تظهر لي أنك تصدق تصديقي لك.. وبذلك تضيع الحدود الفاصلة بين الكذب والصدق بين الوهم والحقيقة بين الغش والأمانة.

والأسطورة ما هي إلا أكذوبة لكنها ذات دلالة ومعنى.. ذات قيمة..

الأسـطورة هـي كذب تاريخي ومن قدمه ومن مدلولاته نصدق أنه حقيقة.

هكـذا كانت المدينة كلها تؤمن بالأسطورة وتدافع عنها وعاشت تحت ظلهـا منذ آلاف السنين إذن هي أسطورة موروثة فهي قابلة للتصديق ولقد جاءت إلينا من عند أجدادنا العظماء..

ولأنهم عظماء لا يكذبون ولقد ملكوا أسرار الحياة والكون.

وهـذه المديـنة شديدة البساطة بالرغم من أنها تنام بوداعة في حضن أكبر المعابد وأفخمها.. المدينة هي التي تنتسب إلى المعبد وليس المعبد هو الـذي ينتسب إلى المدينة. وربما سبقت المدينة وجود المعبد. ولكن من ير المعبد يشعر بأن المدينة تخضع له خضوعا تاما عشقا واحتراما وخضوعا أيضـا. وربمـا كانت المدينة سابقة على وجود المعبد وربما تكبره اتساعا عشـرات المرات إلا أن المعبد يظل هو المؤثر والمهيمن وتظل الأسطورة قابلة للتصديق إلى أبد الآبدين.

المدينة سمراء كالح لونها. أهلها من الضعفاء ، إنهم بسطاء ويصدقون أي شـيء. والراوي يحشي العقول ويسخن الأفئدة بحكاياته والتي لا يبقى مـنها بعـد ذلـك إلا المعنى. والحكايات متشابهة. وكل حكاية تحكي عن معجـزة. إذن كـل الأسـاطير هي معجزات ويجب ألا نسأل.. اسمع ولا

تسأل. اقتنع دون أن تسأل.. هكذا تحدث المعجزة لأنها بيد الخالق. وهناك وسيط هو الذي يدلك على الطريق.. وسيط هو أذكى الناس وأقلهم احتياجا لأنه هو الوحيد الذي لا يصدق هو الوحيد الذي يعرف الحقيقة.. هو الوحيد الذي ينفذ الخديعة.. هو الذي يعرف أصل الحكاية ولكنه صاحب المصلحة الأولى في أن يؤكد صدق الأسطورة.. وهو يتململ حين يسأل الناس.. وقد يتحول تململه إلى ليتّهم فيها الآخرين بالكفر والإلحاد. كيف لا تصدقون يا أولاد أل..؟ سيغضب عليكم الله. سيقذفكم بالحجارة، أو يغرقكم بفيضان، أو تهب عليكم رياح وأعاصير تقتلعكم من جذوركم.

إذن صـــدقوا. وتقـــبلوا. وافرحوا. ولا تسألوا.. الوسيط كان من أبناء ومـــن سلالة الذين بنوا المعبد. صاحب وجه أسمر وطول زائد لا يتناسب مـــع العـــرض ولذا تقاربت عيناه ووقف بينهما الأنف الطويل وكأنه يفض منازعه بينهما.. كما ضاق الفم وغلظت الشفتان تعويضا، واخشوشن الشعر وقصـــر ونحل الجسد بشدة وكان ذلك بسبب إفراطه في الطول إلا أنه كان يمـــتلك ابتسامة ساحرة وصوتا مقنعا.. الصوت هو أحد الأسباب الرئيسية للإقناع خاصة إذا كان مصحوبا بسحر الابتسامة.

في هذه الحالة يصدقونك حتى إن كنت تكذب خاصة إذا داعبت خيالهم بأمنـــية غالية. آه.. إنها الأمنية الغالية التي تستعصي على الحل بالأساليب العادية أو الطبيعية أو حتى العلمية.

إذن لابـــد أن تسبق الحلم محاولات جادة أساسها العلم، حتى إذا رفع العلـــم رايـــة الاستســـلام والهزيمة هنا ينبري الوسيط ويحكي الأسطورة. والأســـطورة تقول إن السيدة التي لا تحمل تستطيع أن تزور المعبد منفردة عـــند كـــل فجر لتستحم عارية بالندى وتتطيب بماء الورد وتنتظر مجيء

الكاهن الذي تسكن روحه المعبد منذ آلاف السنين. فإذا ظهر لها فهذا معناه أنـــه سيعالجها لتحمل بعد ذلك من زوجها. أما إذا لم يظهر لها الكاهن فهي سيئة الحظ ولن تحمل أبدا. ومنذ قديم الزمان والسيدات يترددن على المعبد بنفس الطريقة التي وردت في الأسطورة. وبعضهن يحملن والبعض الآخر لا يحالفه الحظ، تماما مثلما روت الأسطورة المصدقة وكأنها واقع وحقيقة، وكـــان الشاب الوسيط يتخذ المعبد سكنا له ليرعى الأرواح التي تسكن فيه يطعمها ويسقيها بما يجود به الناس هذا إذا حنت إلى طعام الأرض.

ولنتحدث قليلا عن هذا الوسيط إنه شاب من شباب المدينة ذو أصول قديمة ينبئ عنها شكله، تعثر في التعليم فتركه إلى حرفة فلم يتقنها فهجرها. ثـــم حلـــم بأنـــه عين خادما وحارسا للمعبد الكبير فانتقل للعيش في داخله وتصور بعض الناس أن له كرامات فحرصوا على زيارته إذا مرضوا أو كانـــت لهـــم حاجة ملحة، في البداية كانت البنات تألفه لدمامته وقلة كلامه ولكن من بعد أن صار حارسا للمعبد بالأمر الروحي فإن كثيرا من النساء تبســـطن فـــي الحديث معه وقربنه إليهن وأشفقن عليه وأمطرنه بالهدايا.. وانتشـــرت عنه شائعة بأنه يميل بجنون إلى النساء. وأن لديه قدرة جنسية فائقة ولكن سرعان ما اندثرت هذه الشائعة لثقة الناس به وسرعان ما مات أيضـــا الشـــخص الـــذي روج للشائعة في حادث مما زاد من إيمان الناس بكرامات الوسيط. وصفة وسيط اكتسبها لأنه كان يتوسط للسيدة في دخول المعـــبد فجر كل يوم لتحمل وظن بعضهن أنه يستطيع أن يتوسط لهن عند الكاهن ليظهر ويحملن.

كـــل الـــناس كـــانوا يصدقون. وكثير من السيدات على مدى سنوات طويلة رزقن بأطفال بتأثير الكاهن ووساطة الشاب. والحاجة كانت متبادلة

للتصـــديق، ولم لا نصدق وتاريخ المنطقة كله محاط بالغموض؟! بل أشياء كثـيرة جدت لم يتم كشف أسرارها وأنها حضارة عريقة تراكمت أسرارها بحيــث أصـــبح من الواجب ألا تسأل وأن تقبل الحقائق كما هي.. بل من الأحوط ألا تسأل وإلا تعرضت لمخاطر سميت باللعنة. وبذلك تعود الناس ألا يســألوا ومن كشف له عن سر فعليه بالصمت. ولذا لم يكن أحد يجرؤ علـــى سؤال النساء المترددات على المعبد ليحملن عما يحدث بالداخل ولم تجــرؤ إحداهن على الإفصاح عن كيف تم علاجهن.. لا أحد يسألهن ولا هـــن يتطوعــن بالإفصـــاح عن شيء ولا أحد يقلقه أن يسأل فهكذا حكت الأســطورة والأســطورة صادقة ومنبتها حضارة عريقة تفوقت على علم الحاضــر. والحقــيقة أن هــؤلاء الناس معذورون فالمدينة بسيطة وفقيرة وجاهلة والمعبد شاهق عملاق يخبر عن علم غزير كان ملكَ من بنَوْه. إذن هــناك جهــل فـــي مقابل علم وضعف في مقابل قوة. وبساطة في مقابل غمــوض. وواقع ملموس في مقابل تاريخ قديم. إذن فهؤلاء البسطاء ليس لديهم أدوات الإثبات والنفي.

بــل ليس لديهم الآليات العقلية التي تنقب عن أصل الأشياء بل لديهم مـــن مثبطات الفكر ما يجعلهم يرتعدون لمجرد فكرة أن يسألوا.. وهنا إذا بــرز بينهم شخص واحد ذكي اتسعت عيناه واتسع عقله إلى خارج حدود المدينة وطالع الدنيا على حقيقتها فإنه يستطيع أن يكذب وأن يصدقوه. وإذا أراد تصديقا وخضوعا وابتزازاً فإن عليه أن يلوح لهم بالأمل.

الأمل الذي من الممكن أن يتحقق على يديه أي إذا عمل هو وسيطا.. المشـــكلة أنه هو أحيانا كان يصدق وبذلك يكون هو في نظر نفسه مدفوعا ملهما مختارا. أي ليس كاذبا مخادعا.

ويـــبدو أنه بدأ يسهل لنفسه فكرة أنه لا يكذب.. لقد أراد أن يبدو أمام نفسه في صورة الصادق.. ولذا فإنه كان يدخل في حالة من تشوش الوعي وهـــو يجامع النساء اللاتي يأتين طلبا للحمل من روح الكاهن في السنوات الأولـــى كـــان يعي كل شيء ، ويؤدي كل شيء بيقظة تامة.. فكان يتلفع بعـــباءة ســـوداء. ويهمهـــم بلغة غير مفهومة ويقترب من المرأة الراكعة العاريـــة ويـــنام معها ويتكرر ذلك خمس أو ست مرات على مدى أربعين يومـــا تحمل بعدها أو لا تحمل. وهو الوحيد الذي يعرف أنه لا يوجد كاهن أو يحـــزنون. ولكـــن فـــي السنوات الأخيرة أصابه تغيير ما.. لقد أحب.. وكانت حبيبته فتاة صغيرة وتزوجت من رجل طاعن في السن من وجهاء المدينة ذوي المال والسطوة.. وامتنع عنها الحمل فحملت ببركات الكاهن. ولكن صاحبنا الوسيط أحبها وتصور أنه لن يستطيع الاستغناء عنها.

ولذا بدأ في المرحلة الجديدة وهي مرحلة أن يصدق أن ما يقوم به مع النســـاء ليحملن إنما يتم بدفع ومباركة من روح الكاهن. ولم يبذل مجهوداً كبيرا في إقناعها بحبه ودفعها إلى حبه كشاب له بركات خاصة.

وفـــي يـــوم مـــن الأيام اكتشف الزوج العجوز اختفاء زوجته الشابة الحامل وعلى مدى أسبوع آخر تيقن أهل المدينة من اختفاء الوسيط.

ولـــم تســـلم حادثة الاختفاء من أن تصبح أسطورة.. فقالوا إن السيدة الصغيرة أفصحت بالسر فعاقبها الإله بأن أجهضها أولا ثم دفنها حية.. وأن الإلـــه أيضا عاقب أهل المدينة بحرمانهم من الوسيط ودفعه للانتقال ليعمل فـــي معبد آخر بعيد. وأخذ اللاتي يحتجن إليه يبحثن عنه في كل مكان فلم يجدنـــه فاستسلمن. إلى أن ظهر وسيط جديد يساعد النساء على الحمل من روح الكاهن.

60-70-80-90

ستون:

مـــا هــذا التـــتابع السريع للسنوات.. هكذا فجأة أصبحت في الستين. وأمـــس كنت في الثلاثين، وقبل أمس كنت في العاشرة. يا من يدلني كيف أعود إلى الوراء زحفا أو منتصبا أو طائرا. وهل هذا ممكن؟ إذن عليك أن تقبل الأمر الواقع وأن تقر بالحقيقة وهي أنك قد وصلت الستين.

وما المشكلة!! أنا حقا في الستين ولكنني ما زلت أملك حس ومشاعر وقوة وطاقة وجمال إنسان في العشرين أو قبل الثلاثين. نعم الثلاثين. ليس أكـــبر من الثلاثين. أنا أعرف نفسي وأنا أشعر بنفسي بيولوجيا والحمد لله زي الحديد.

ولكـــن المشـــكلة أنـــه تنتابني أحيانا حالات من الهبوط المفاجئ في المعنويات انهض صباحا بدون رغبة في الاستيقاظ لا أريد أن أرفع الغطاء من فوق رأسي حتى لا أرى النور أشعر بأنني مهزوم وأنني ضئيل وأنني لا شيء وأن الماضي كان عبثا وأن الحاضر غث وأن المستقبل هباء منبث لا شـــيء يستحق وكل أمر بلا جدوى. ولكنني اضغط على نفسي وانهض فأنا محارب.

أنا جسور لابد أن أفعل شيئا أرتدي ملابسي وأخرج أخترع مشوارا، اجتماعـــيا مهما. ما زلت أريد أن أستمر مهما. ما أقسى أن تكون مهما ثم تصـــبح غـــير مهـــم أين السيارة التي كانت تسبقني والحرس الذين كانوا يحوطونـــي وأيـــن انتفاضـــة الرجال حين رؤيتي.. آه.. دوام الحال من

المحـــال.. ولكننـــي أصر على البقاء.. الاستمرار.. فأذهب إلى الاجتماع الشـــرفي. أصغرهم سنا أنا ، أكبرهم في الثمانين أو يزيد، مناقشات فارغة هجـــوم على الجيل الحاضر نعْيُ الماضي.. سكرتيرة الاجتماع بنت مليحة ما زلت أشعر بقوة تجاه النساء هل أستطيع التعرف عليها..؟ هل

تقـــبل أن أقيم معها علاقة. أو لعلها مرتبطة بشاب في سنها. أو ربما هـــي تهـــوى كـــبار السن لتنهل من عقولهم أو جيوبهم حاولت أن أغازلها فصـــدتني بأدب وخوف ولكنني أصررت ونجحت هي مخطوبة فعلا ولكن ليس لديها مانع من قضاء بعض الوقت الممتع ولكن لكل شيء ثمنا.

مفاصلي تئن. لابد من زيارة أكثر من طبيب وتناول حوالي خمسة أو ســـتة أقراص يوميا وحقنة كل أسبوع ولكن مازلت لا تحتاج تلك الأقراص التـــي يثـــيرون حولها ضجة. لابد أن أظهر ميولا سياسية تتفق مع الاتجاه العـــام حـــتى ينظروا نحوي.. نجحت محاولاتي اختاروني لمنصب مازلت قـــادرا علـــى الإبـــداع والعطاء في العالم كله لا يكفون عن العمل إلا بعد السبعين وأنا مازلت صغيرا في الستين.

سبعون:

ياه.. وصلت السبعين!! يا له من رقم مفزع كنت في شبابي أحب رقم ســـبعة والآن أكـــرهه خاصة إذا كان مسبوقا برقم آخر، الشعر على وشك الاخـــتفاء بعـــد أن تراجع كثيرا وما بقى هو أبيض كالثلج، تجاعيد كثيرة ظهـــرت على الوجه وحركة البدن بطيئة ولكنني أمشي نعم أمشي. أمشي ولمسافات طويلة هكذا أسمع في كل لحظة أن المشي يعيد الشباب وأنا أحن بشـــدة لأكون في مثل حيوية الشباب أكره أن أكون عجوزا مسنا ولكن لابد مـــن الاعـــتراف لقد تراجعت بعض الوظائف المهمة ولكنني مازلت على

ولعـــي بالحـــب وروجت لمقولة إن الحب أهم من الجنس ولكن هذا قصر ذيـــل.. ولكن الأمور ليست سيئة مازال هناك حركة ولكن الضغط لا يريد أن يـــنخفض ومـــن الستين إلى السبعين تعرضت لنوبتين في القلب. امش الهوينـــي. لا تأكل كثيرا لا تدخن، نم مبكرا لقد كرهت كل هذه التعليمات وأنا أحب أن اخترقها عن عمد. أنا أريد أن استمتع بالحياة أنا أحب الحياة. ماذا بقى لي من العمر عام، عامان، خمسة..

كثـــيرون مـــن جيلـــي قد ماتوا، إن الموت يقترب ولذا زادت أوقات الاكتـــئاب ولكن أقاوم ومازال هناك أحياء في الثمانين بل في التسعين. أنا أعـــرف بعضهم أعرف من تزوج وهو في الخامسة والسبعين وأعرف من صادق في الحرام وهو في الثمانين إذن مازال هناك أمل وأشياء كثيرة في الحـــياة لهـــا طعـــم جمـــيل. الطعـــام والنساء والسفر إلى الخارج والعمل بالسياسة، نعم العمل بالسياسة يحيي القلب.

أنـــت لا تكـــون مهما إلا إذا عملت بالسياسة واصطنعت معارك حتى تعرضـــت للهجـــوم الضاري لأن ذلك يعني أنك مازلت حيا ومازلت قويا ومازلـــت مهمـــا لابد أن تتشدد ولابد أن تكون سليط اللسان ولابد أن تثير صـــخبا.. والاحتياج للمال يكون أكثر في هذه المرحلة لأنه يجب أن تدفع أكثر. يجب أن تكون سخيا مع الخدم ومع النساء ومع المرافقين ما أسوأ أن ينحسر عنك الضوء بعد أن كنت مهما..

الصـــحف تحمـــل أنباء سارة عن أقراص عظيمة الفائدة وعن عقاقير للطاقـــة وعن جراحات تجميل تجعل الوجه يبدو في العشرين أو أقل حتى الثلاثيـــن، طيب ياريت أبدو في الأربعين نعم الأربعين ليس فوق الأربعين الحمد لله الذاكرة مازالت بخير، إنهم يتحدثون كثيرا عن النسيان ولكنني لا

أنسى، الذاكرة فقط. المهم أن يكون القلب نابضا والجيب ممتلئا. ولا يمتلئ جيب إلا من مشروعات عظيمة وضخمة وإذا كنت في السلطة فأنت تستطيع أن تجمع أكثر وأكثر لابد أن تتحول إلى رجل أعمال مستتر أو رجل أعمال ومشارك.

أندهش لمن ينزعجون من سن السبعين في عصرنا هذا سن السبعين تقابل سن الأربعين في الماضي فلنرفع شعار الحياة مازالت جميلة في السبعين ولنذل هذا الشعار بالثالوث= السياسة.. والمال.. والحب.

وأحيانا أحلم بأمي وأبي وقد عادا إلى الحياة فأشعر وكأنني طفل أشعر أحيانا باحتياجي لمشورة أبي وأنا في السبعين، وأشعر بحنين إلى يد أمي تمسح فوق رأسي وأنا في السبعين واشتاق للآيس كريم وشاطئ البحر وامتداح جمال امرأة حتى يلف رأسها، من امتداح جمالها هذا هو الطريق الوحيد لقلب امرأة إلا إذا كانت صاحبة أقدم مهنة في التاريخ في هذه الحالة لا يهمها إلا امتلاء جيبك في سن السبعين تتكلم كثيرا وتفعل قليلا وتدفع كثيرا. الدفع أم الرفض والتجاهل. أذهب سرا إلى زيارة أضرحة أولياء الله الصالحين أختفي عن عيون أصدقائي ولا أخبرهم بتلك الزيارات السرية غير المقنعة بالنسبة لهم.. ولكنني أشعر بارتياح بالغ وأتوضأ وأصلي بخشوع وأقرأ المصحف بتمعن وتأثير وتنزل دموعي من خشية الله في السبعين تزداد قرباً من الله مثلما يزداد اقترابك من باطن الأرض وكأنك تحاول أن تصعد إلى أعلى بدلاً من أن تهبط إلى أسفل..

وأتصور إن الله سيغفر لي لأن قلبي يذوب تبتلاً في حبه ولكنني مازلت أتردد أيضاً على مجالس الأنس حيث الظرفاء والأثرياء والقوم المحترمون مازال القلب شاباً رغم الجلطات المتكررة ومازال الميل للحب

جارفـــاً ولكننـــي يجـــب أن أحفظ التوازن بين هوى الروح وهوى القلب ومـــازال الجســد يهـــوى أيضاً ولكن باعتدال يتناسب مع حجم التراجع.. أتحاشـــى الدخول في منافسة مع الشباب وأفضل اللقاء مع من هم في مثل عمـــري، بريق المال والسلطة لشد أعين الصغيرات أكثر من بريق الشباب فـــي هذه الأيام ، والموضة هي الجمع بين الاثنين واحد للحب وآخر للدفع معظـــم الصـــفقات تشـــهدها نســـاء إما بالمشاركة وإما بالاستفادة النهائية وبعضهن أعلنَّ الاستقلال أشهرن جمعية سيدات الأعمال ، أعمل كثيراً ولا أتعـــب مازلت ممتلئاً بالحماسة ، عمرك الحقيقي هو ما تشعر به وليس ما هو مدون في الأوراق الرسمية.

ثمانون:

لـــم أشعر أن الموت قريب جداً إلا حينما بلغت الثمانين، وكأن مسدساً تلاصق فُوَّهته رأسي وينتظر من يضغط الزناد في أي لحظة أو كأن حبلاً ملتفاً حول عنقي ينتظر من يشده في أي لحظة لتزهق روحي..

ذهب كل الأصدقاء لم يبق لي إلا الذكريات التي تنعشها أغنيات قديمة وأفـــلام شـــاهدتها عشـــرات المرات إلا أنها تسعدني أكثر كلما تقدمت في العمـــر إنها الخيط الوحيد الذي يربطني بالأيام الحلوة إلا أن حبي للحياة لم يمـــت بعد.. أمشي نصف ساعة يومياً.. أتناول كميات هائلة من المقويات والفيتاميـــنات إلا أن شـــغفي بالنساء قد خفت تماماً.. عدت أكتفي بالحديث الـــذي يفـــيض بالمرح ويوحي بالغزل ويشي بالغواية ولكن دون أن أتقدم خطـــوة أكـــثر مـــن ذلـــك من الصغيرات.. لم يعد يهمني الجمال وأنا في الثمانيـــن. ولـــم يعد يهمني المستوى الثقافي والاجتماعي.. ولكن يكفي أن ترضـــي بالحديث معي في سن الثمانين يجب أن تبذل جهداً ليرضى الناس

أن يلتفــتوا إلــيك. ســن الثمانيــن لا تخطئها عين.. الجسد تكور وتكعبر وتشقق، إلا أن أعظم نعمة هي أن يظل العقل متقداً والقلب متحمساً والمعدة سليمة، من المتع القليلة المتبقية للإنسان في سن الثمانين هي متعة الأكل.

أفكر كثيراً في اللقاء المرتقب مع الله.. أفزع لهول ما ارتكبت من آثام أستغفر وأستغفر وأستغفر رحمتك يا رب..

وأخشـــى ما أخشاه أن يحاسبني الله على أيام الشك والتجديف لقد كنت مجــنوناً وقــتها بالفلسفة والعدالة.. وعن طريق العلم وصلت إلى الحقيقة وهي أن الحق موجود وهو الخالق لكل الكائنات من النملة إلى الإنسان ولم اهــتد إلــيك إلا حينما وصلت إلى أن الحياة يحكمها قانون واحد هو قانون الماء والهواء لكل الأحياء ورغم ذلك تنتابني للحظات أفكار شيطانية، وقد بلغــت الثمانين وذلك حين أفكر لماذا خلقنا ، ما الهدف من الحياة والعقاب والــثواب؟ نولــد لــنموت إذن مــا المعنى وما الفائدة أولد ضعيفاً وأموت ضعيفاً وأعاني معاناة غليظة فيما بين الميلاد والموت ترحب بي الحياة وأنا شاب وتلفظني الحياة والأحياء وأنا عجوز ، أي قسوة!! واستغفر الله وأكاد أشــنق نفســي لسخافة الأفكار التي تقتحمني والتي اعتبرها الطبيب مرضاً يسمى الوسواس القهري تناولت له علاجاً.

أقصى درجات متعتي حين أزور قريبة لي اقتربت كثيراً من السبعين كانت بيننا علاقة غرامية في سن الشباب يشملني السرور حين اقترب من شــارعها يرقص قلبي حين أطرق الباب هو زهو الشباب حين ترحب بي بشــدة وتعد لي طعاماً شهياً ونأكل معاً على أغاني عمرها يزيد على ستين عاماً ولم يعترض أحد من أقاربها على هذه الزيارات لأنه من غير المتوقع أن يكون الشيطان ثالثنا.

تسعون:

مازلـــت أستطيع أن أمشي ولكن بصعوبة غير بالغة يصاحبني مرافق إذا خرجت إلى الشارع أذهب إلى حديقة قريبة ولا هدف إلا مراقبة الناس مـــا أروع أن يكـــون هناك ناس. الحياة هي الناس تسليتي الوحيدة اختلق سيناريوهات.. اقرأ لغة الشفاه من على بعد، استشف المشاعر من تعبيرات الوجـــوه فأستطيع أن أقول لك: هذان في حالة حب، وهذا في حالة ضجر، وهؤلاء في حالة سرور. لا أجوع تقريباً وانعدم جوعي للنساء ولا صديق بقـــي على قيد الحياة ولا يصاحبني إلا الحفيد الذي يتقاضى أتعاب المرافقة أنـــام أكـــثر مما أصحو البطء الشديد في كل شيء وعيي متيقظ وتركيزي كـــامل إلا فـــي لحظات أغيب فيها.. ربما أغادر الدنيا بعض الوقت بروفة موت.. وفي مرة رأيتني أنزل قبري رؤيا العين في إحدى غفواتي ورأيتني في مرة أخرى أرضع من ثدي أمي وكأنني رجعت طفلاً وفي مرة أخرى كنـــت متوعكاً فرأيتني وأنا في التسعين أجلس على حجر أمي وأرضع من ثديهـــا الضـــامر الذي كان يقطر لبناً وعسلاً وفي إحدى المرات فزعت إذ رأيتنـــي أحاول أن أدخل إلى رحم أمي مرة أخرى وفي أحيان كثيرة أنادي عليها وأنادي أبي أيضاً وكأني أطلب منهما الاستعداد للقائي.. أنا قادم.

وفـــي يـــوم مرضت بشدة وغبت عن الوعي معظم الوقت والتفوا من حولـــي لم أر دموعاً في الأعين وإنما ترقباً ومن بين الوجوه المحيطة برز وجـــه عزرائيل قال لي لقد أمهلتك كثيراً هيا تعال معي ، في هذه اللحظة تمثلـــت أمـــام عيني كل الآثام التي ارتكبتها فطلبت منه أن يمهلني بعض الوقـــت لاستغفر. أريد فرصة لأفعل خيراً يمحو بعض سيئاتي.. نظر إلى ملك الموت شذراً وقال لا فائدة فسقطت في غيبوبة أعمق ووجدتني أصعد

إلـــى الســـماء اقتربت من الباب فقدت إحساسي بوزني وتحولت إلى شيء آخـــر لـــم أستطع أن أدركه شملني صفاء و سمعت همهمات ورأيت ألواناً مـــتداخلة وقلـــت لنفسي لعلي غادرت الحياة إلى الأبد وأنا الآن في طريقي إلـــى العـــالم الآخر. وربما غفر لي وتم حسابي وأنا الآن في طريقي إلى اللقـــاء ومـــن بعده الجنة. وفي غيبوبة أخرى فزعت إذ رأيتني اقترب من جهنم ثمة رائحة شواء تنبعث وأصوات مكتومة تصرخ بالألم ووهج حارق يشع من بعيد وأسمع من يعدد لي آثامي فأطلب الرحمة ولكن لا أحد يستمع لـــي فقـــد فـــات الوقت. وحين يزول عني المرض أستعيد وعيي. الرؤية محدودة وأسمع بصعوبة ولكنني أحب أن أتكلم ولم أكف عن الكلام إلا في حـــالات المرض الشديد، لي حفيد مهتم بالتاريخ يأتيني ليسمع مني سألني النصيحة قلت له: لا تصدق إلا ما تراه عيناك، ولا تؤمن إلا بما يدفعك إليه قلـــبك واجعل الرحمة فوق كل شيء. اندهش الحفيد وسأل: أأجعل الرحمة فوق الحق والعدل. فقلت له عن يقين كامل وقناعة مطلقة: نعم.

انحطت قواي إلى الحد الذي منعني من الذهاب للحديقة لمتابعة الناس، حرمت من متعتي الوحيدة فناديت على ملك الموت ليقبض روحي وأستريح، اســـتفزه ندائـــي وقـــال لـــي بغلظة: لست على هواك لأجيء وقتما تريد. ســـتجدني وقتنا أريد أنا قلت بغضب: زيارتك المباغتة هي سر قلق الناس وخوفهـــم مـــنك. فقـــال بصوت لم أحبه: تفسد الحياة إذا لم يخشَ الناس.. هددتـــه بأننـــي ســـأقبض روحـــي بـــيدي فضحك مني وقال حتى هذه لا تســـتطيعها.. تملكتنـــي مشـــاعر العجز واليأس وناديت الله طالباً الرحمة، رحمة الموت.

المباغتة والابتلاع

يستوعب البحر كل ما تلفظه الأرض وكل ما يسقط عليه من السماء. الأعماق السحيقة قادرة على ابتلاع الأرض ذاتها. وابتلاع الأرض لا يكون دفعة واحدة وإنما شبرا شبرا.. قضمة قضمة.

اندثرت مدن وطفت مدن.. هلك بشر وكتبت حياة جديدة لبشر آخرين وليس المهم من اندثر ومن طفا، من هلك ومن عاش وإنما المهم أن تظل العلاقة الثلاثية أرضا وسماء وبحرا.. من البحر إلى السماء إلى الأرض إلى البحر. ومن البحر يتخلق النهر مرورا بالسماء. النهر من صلب البحر. فالبحر أصل الحياة.

البحر هو الأصل. البحر هو الأقوى والأبقى. نهلك بدون البحر ونهلك في البحر أيضا إذا غضب. ولا أحد يعرف لماذا يغضب البحر أحيانا ولماذا يصفو في أحيان أخرى؟ وكيف يكون مبعوثا لحياة ومبعثا للموت أيضا؟

هذا البحر حمل النبي طفلا لبر الأمان، وفي مرة أخرى أهلك أعداء النبي. ومن يؤذِ نبيا يهلكْ.. يبتلعه بحر أو يغرقه طوفان.

وليست كل رحلة عبرَهُ مأمونة، فكم حوى قاع البحر من صنوف البشر. مقبرة بلا حدود ليست كمقابر الأرض الضيقة. رحابة تخنق مثلما يخنق الضيق. مكتوب على من يموت بحرا أن يختنق أولا قبل أن يموت.. ومكتوب على من يموت أرضا أن يختنق ثانيا بعد أن يموت وتتعدد

الوسـائل والموت واحد. الموت هو الموت. ولا يوجد موت بلا حياة. ولا توجـد حياة بلا موت فالحياة سابقة على الموت. دليل على أن حياة كانت قـبله. وستعقبه حتما أخرى.. حياة فموت فحياة.. فأهلا بالموت مثلما أهلا بالحـياة وشكرا للبحر الذي يهب نهرا وطعاما وزينة للنساء، وشكرا للبحر الذي يسهم في موت بعض البشر.. البحر يهب حياة ويهب موتا.. يهب أمنا ويهب هلعاً يهب استرخاء ويهب هلعاً يهيب استرخاء ويهب انقباضاً يهيب صـفاء ويهيب استفزازاً يهيب ترحيباً ويهيب تحديًا.. هادئ ساخط.. باسط فائر.. وديع هادر.. هامس صاخب.

لا اسـتقرار على حال واحدة. هو محير لأنه متغير.. وأنت يا حبيبي مـثل الـبحر تمامـا. أقسم بالله أنك مثل البحر ولقد تعبت.. أرهقت ولن أسـتطيع أن أجبر على هذا التذبذب الذي أحال حياتي إلى جحيم وصبغها بالتعاسـة وأدماها بالقلق والخوف حتى فشل جهازي العصبي في الصمود أمـام أبسـط أحـداث الحياة.. أصبحتُ أنهار سريعا.. أضطرب أمام أي مشكلة.. أخاف أي مواجهة.. أرتعش لأخفت صوت.. تعبت.. تعبت.. قل نومـي وقـل طعامـي ونحل قوامي واضطربت دورتي الشهرية فاختلفت مواعـيدها وكـثرت كميـتها أحيانا وقلت إلى حد العدم في أحيان أخرى أصـبحت أكثر إيلاما لا يتفوق عليها إلا معدتي حين تتألم وكثيرا ما تتألم حين تباغتني يا زوجي بطلبك أن تعاشرني فتتصلب كل عضلاتي وتتلوى كل أمعائي ويصعد الحامض من معدتي إلى حلقي ليكويه.

لقـد زهـدت الحياة معك بل زهدت الحياة كلها.. تراجعت ابتسامتي وخـبا سـروري وقل استمتاعي.. أصبح للحياة مذاق غير طيب وأصبح الـنهار بـلا معـنى والليل كالسجن لأنه يربطني بك في سرير واحد. قل

فرحي بالصحبة والنزهة والطعام الطيب والسهرِ بصحبة القمر والنغم.. ثم إنـــي أصـــبحت ذاهلـــة عن عملي وعن أولادي لا أتذكر كمن ضمر مخه وتـــراجع عقلـــه.وإذا سألوني عن عيوبك ولماذا أريد الانفصال عنك فليس لدى سبب مقنع لأي أحد ولكن لدى أسبابي التي أقتنع بها وحدي. كل الناس يـــرونك مثالـــيا مخلصـــا لي ومحبا لأسرتك مستقيما في خلقك.. وكل هذا صـــحيح ولكنني أفتقد شيئاً مهماً معك. أفتقد الاستقرار النفسي، أفتقد دقات القلـــب فـــي تـــؤدة والنبض في اعتداله والتنفس في إيقاعه المنتظم.. إنك تصـــيب كـــل أجهزتـــي بـــالخلل.. تسبب في داخلي عدم توازن بيولوجي بالإضافة إلى حالة الكرب التي أصاب بها.

والســـبب في كل ذلك هو المباغتة في كل شيء المباغتة في غضبك والمباغـــتة في رضاك المباغتة في صفائك والمباغتة في عكَرِكَ.. المباغتة فـــي رقـــتك والمباغتة في وحشيتك. لا تمهيد لشيء لأستعد وأتهيأ أفقدتني القـــدرة على التوقع والتنبؤ أنقلب من حال إلى حال في لحظة واحدة. من الهجـــير إلـــى الصقيع والعكس. وفي ذلك حضيض عدم الإنسانية وإذا بك تـــتمادى في كل انفعالاتك المتأرجحة وذلك يزيد أكثر من إرهاقي النفسي والعصـــبي. أنت لا تعرف الوسط. أنت لا تعرف الاعتدال. أنت لا تعرف الموازنـــة بيـــن الأمور المختلفة والأضداد. أنت تميل كل الميل في ظلمك وعدلك، في حبك ونفورك، في قربك وابتعادك، في مرحك وفي كدرك.

كمـــا أن تقلباتك المفاجئة مجهولة السبب في معظم الأحيان. وإذا كان هناك سبب فهو واه غير مقنع، فأنت لا تعرف الموازنة بين الأفعال وردود الأفعـــال.. لا تعـــرف كـــبح جماح استجاباتك وفقا لمقتضيات الموقف ولا تعرف مرونة مواجهة التداعيات.

كمـــا تعوزك حكمة معالجة الأمور بمنطق يفرض نفسه على الجميع بمـــن فـــيهم أنا وليس بمنطق خاص بك أنت وحدك من وحي افتراضاتك والتـــي مبعـــثها نقاط ضعفك المتعددة وعدم ثقتك بنفسك داخليا وعدم ثقتك بالآخريـــن ولـــذا فإنه لا تبدو لي في معظم الأحيان علاقة واضحة بين رد فعلـــك ولين طبيعة الموقف وأتصور أنك تتعدى الموقف لتتناول الأشخاص ولـــيس الحـــدث وكأنك تريد أن تعاقبهم بدون جريمة اقترفوها وفي أحيان أخـــرى تسترضيهم دون مبرر وكأنما تطلب رضاهم ليسامحوك فيما فعلته بهم. وبالتالي فأنت لا تقدر مشاعر الآخرين إلى حد عدم الرحمة. وانتزاعُ الرحمة من قلب إنسان ولو لدقيقة واحدة كفيل في أن يتسبب في قتل إنسان آخـــر أو حـــتى حـــيوان، وكفيلُ بإحراق زرع أو تسميم مياه. لقد أحرقت أعصـــابي وســـممت حياتي فقتلتني معنويا إني أشعر بالدوار. لقد أفقدتني توازنـــي. ليـــتك كنـــت عصبيا فأتعلم كيف أتحاشى استفزازك. ليتك كنت عدائيا فأتعلم كيف أزرع الحب في قلبك وأنزع منه العداوة.

ليـــتك كنـــت عدوانيا فأتعلم كيف أداوي بالخير روحك حتى تصبح خَيرا.. ولكـــنك لا هذا ولا ذاك. أنت كالأرجوحة بدفعة بسيطة تنحدر يمينا وبقوة الدفع المضاد تنحدر يسارا. وأنا طفلة صغيرة كانت تصيبني بالدوار وكنت أعجب كيف يحبها الأطفال ويتلهفون عليها.

أنـــا أحـــب الاستقرار والاعتدال، أثق في من له اتجاه واضح ومحدد وأطمئـــن إلـــى مـــن يقـــدر الظروف وأحترم من يضبط مخارج انفعالاته لتتناســـب مـــع الموقف وتحتويه، وأعشق المنطق والحكمة والمرونة التي تفـــرخ التســـامح فينخفض الغضب إلى الحد الأدنى وتشل العدوان وتمحق العداوة.

وأنت يا حبيبي لأني أحببتك يوما ما وقد أكون ما زلت أحمل لك قليلا من الحب ولا أكرهك ولكنني لا أستطيع أن أعيش معك ومن تلك التي تتزوج بحرا وتستطيع أن تستمر في الحياة معه؟ البحر لا يرتاده إلا الصيادون وما أنا بصائدة، ولا يغوص في أعماقه إلا الباحث عن اللؤلؤ ليثري وأنا قانعة بحالي.. أنا أحب البحر فقط من على شاطئه.. أهوى مراقبته عن بعد.. أستنشق بعمق هواءه المشبع برائحة الحياة.. ولكنني أكره أن يبتلعني أكره أن يغتالني. أكره أن يرهق أعصابي بتقلباته المفاجئة المباغتة مثلك تماما يا حبيبي.. ومثلما يا حبيبي ابتلعتني أو حاولت أن تبتلعني ولكنني قاومت وقفزت من بطنك مثلما قفز نبي من بطن الحوت. الزواج ليس ابتلاعا ولكنه تلاصق إرادي.. فم يلاصق فماً وأنفاس تختلط مع أنفاس وجسداً يلاصق جسد ودماء تشعر بفورة وسخونة دماء أخرى.. وفكر يقارع فكراً.. وعقل يستمد وعيه من عقل إنسان أخر مثلما يمده بالوعي.. ووجدان يستمد وهجه من وجدان إنسان أخر مثلما يسهم في توجهه.

هذا هو الزواج يا زوجي وهذا هو الحب يا حبيبي. ولكنك تجاهلتني كإنسانة وكحبيبة وكزوجة فتماديت وتركت لمزاجك العنان ليتقلب كما يشاء وكيف يشاء فأصعد وأهبط محمولة على أوتار حنجرتك حين يزأر صوتك غضبا أو يخفت أنسا، وأتأرجح يمنا ويسارا وكأنك تمسكني من شعري وتطيح بي حيثما يوجهك سخطك أو رضاك فإذا تكلمت أسكتني وإذا اعترضت أخرستني وإذا صرخت سددت أذنيك لا تريد أن تسمع صوتا إلا صوتك ولا يسود رأي إلا رأيك ولا تشيع حالة وجدانية من سرور أو شرور ألا بوحي من مزاجك الشخصي لقد ألغيتني مثلما أرهقتني.

لا تريد أن تطلقني تقول إنك تحبني.. وأنا بتعريفي للحب أقول إنك لا تحبنـــي أنت تحبني بطريقتك الخاصة إنه حب أناني لأنك أناني. الأناني لا يرى إلا نفسه ولا يحب إلا نفسه وإذا أحب شيئا آخر فمن خلال حبه لنفسه الأنانـــي يفرض مزاجه ويفرض اللون الذي يستهويه يفرض المنطق الذي يحقق له أهدافه ولا يطلق سهما إلا في الاتجاه الذي يوصله إلى أغراضه. الأنانـــي يـــتجاهل مشاعر الآخرين واحتياجاتهم.. الأناني يضغط ويضغط ويضغط. تطلب مني أن أذكرك ببعض المواقف.

وأنـــا أقول لك إن المرأة لا تنسى ، احذر ذاكرة المرأة. في الوقت المناسب. تستخرج ما في جعبتها.

أتـــتذكر كم من مرة أصررت على أن تظل الحجرة مضاءة لأنك تريد أن تقرأ بينما أنا أعاني الأرق. ولدي عمل في اليوم التالي.

لا أتذكر أنك جاملتني ولو مرة واحدة وتركتني أنام بدون إزعاج.

أتـــتذكر إصـــرارك على التكييف البارد بينما أنا أعاني مرضا يجعلني أرتعـــش مـــن شـــدة الإحســـاس بالبرودة.. لا أتذكر أي تضحية منك وأنا مريضة.

أتـــتذكر الضغط علي لزيارة صديقك وزوجته أكثر من مرة ولسنوات رغـــم أنني لم أكن أحب هذه السيدة ولم أكن أثق في هذا الصديق وتجاهلت مشـــاعري ولـــم تحترم رغبتي حتى اكتشفت بنفسك أن صديقك المخلص يغازلني.

أتـــتذكر ثورتك العارمة لأني كنت أريد أن أتحفظ في علاقتي بشقيقتك لأسباب أراها من وجهة نظري مهمة. وكان من الممكن أن تتصرف بهدوء وحب لتقرب بيني وبين شقيقتك وتزيل الخلاف بيننا.

أتـــذكر إصـــرارك علـــى الأفلام التي نراها والأغنيات التي نسمعها والأماكن التي نستجم فيها دون أن يكون لي رأي في ذلك ودون أن تسألني عما أحب ولا أحب؟

ألا تـــتذكر خلافاتـــنا حول تربية أطفالنا وإصرارك على وجهة نظرك دون اعتـــبار لموقفي كأم؟ أنسيت صوتك الذي يرتفع دون سبب وعباراتك الثقيلة الجارحة؟

أنســـيت تســـفيهك لرأيي دائما خاصة أمام الناس حتى تقلل من شأني وتـــرفع من شأنك مع أن شأنك هو شأني ومكانتك هي مكانتي ، وأن يكون احترام الناس لنا كزوجين معا وليس كل منّا على حدة وكأننا في مسابقة أو ســـباق للفـــوز باهتمام الناس وتقديرهم. وكنت أتغاضى عن هذه الأشياء، وأشـــياءَ كثـــيرةٍ مـــثلِها لأنني كنت أحبك. كنت أحب الجلوس إلى شاطئك والاستمتاع بمظلتك والائتناس بوجودك والشعور بك كرجل.

ولكـــن مـــا أزعجنـــي إلـــى حد الهلع هو مباغتتك المضنية المرهقة ومحاولاتك المستميتة والنشطة لابتلاعي. وهنا أدركت أنني سأضيع ولهذا فأنـــا مصممة على الانفصال. أنت تقول إننا سعداء، هذا غير حقيقي أنت فقـــط الذي كنت سعيدا لأنك كنت تأخذ ولا تعطي. لأنك كنت تأخذ راحتك وبـــراحك فـــي الضـــغط عليّ ولم تعان أنت أي ضغط. كنت تمد ذراعيك وســـاقيك إلى أي مدى دون أن تصطدم بشيء كان يعلو صوتك إلى أقصى حـــد دون أن تجد من يرد عليك. فطبيعي أن تقاوم الانفصال إذ تجد مسندا مريحا مثلي وأين تجد متكأ يتحملك مثلي؟

لقـــد أخطأت إذ تماديت لقد استمر سكوتي وتقبلي لم تكن تدرك أنني أصـــبر وأن لكـــل شـــيء نهاية ولكل إنسان درجة احتمال بعدها يسقط أو

يحـــاول أن ينقذ نفسه من السقوط فيهرب لقد سقطت لأنني صبرت طويلا صبرت أكثر مما ينبغي فلم أتحمل ولكنني أقف الآن على قدمين ثابتتين لقد اســـتعدت ثباتي بعد أن قررت الرحيل. ولعلك تتعلم الدرس أي تستوعبه ثم تعمل به في المستقبل والدرس هو ألا تطغى فهناك حدود لكل شيء والعاقل هـــو الـــذي يعـــرف أين يتوقف وأنا أتصور أنك لم تكن عاقلا أي لم تكن حكـــيما موضوعيا مقدرا وربما كنت مريضا وربما كنت تستمتع بضغطك علي، أي نوع من السادية؟

وربمـــا تمـــاديك كـــان بسبب شعور دفين بالنقص والذي كان علاجه الوحـــيد هـــو أن تضغط على إنسان وأن يتقبل هذا الإنسان ضغطك دون اعتراض أي أنه يخاف منك ويخشاك.. إنك كنت في حاجة إلى أن يخشاك إنســـان ولذا كان من الصعب عليك أن تكون عادلا ومنصفا ومنطقيا، لأن هـــذا لـــم يكن ليرضيك وربما كان سيعمق إحساسك بالنقص ولذا فالرحمة عـــندك كانت ضعفا والمودة مذلة والتسامح وهن والتنازل عن الرأي خيبة والاعتراف بوجود الآخر تخاذل.

وقد يصور لك غرورك أنني أريد أن أهرب، أي أنني ضعيفة..

وقـــد تتهمني أنني لم أعد أحبك.. وقد يصور لك خيالك المريض أن هـــناك شخصـــا آخر وقد يهديك أفقك المحدود إلى أني أريد أن أتخلى عن مسئولياتي.. ولكن الحقيقة يا عزيزي غير ذلك فأنا قوية ومازلت أحتفظ لك ببعض المشاعر لأنك جزء من حياتي ولا يوجد شخص آخر في حياتي ولا أريـــد أن أتخلى عن مسئولياتي ولكنني أرحل لأني كزوجة لم يصبح لدي ذرة عطاء لك لن أستطيع أن أعطي لك أي شيء وحين تشعر الزوجة بذلك تجاه زوجها عليها أن ترحل، هكذا تفعل كل امرأة محترمة شريفة.

مدد من السماء

بعض الناس يصلهم مدد مباشر من الله يوجه خطواتهم ويقود مسيرتهم، وينــير طريقهم، ويدفعهم دفعا في اتجاه معين صوب شيء معين؛ ليكشف لهــم أمرا مخيفا لم يكونوا ببالغيه إلا بعون كاشف الأسرار ومبلغ الأخبار؛ لحكمــه يقتضيها وفي ذلك يكون الخير كل الخير لهذا الإنسان حتى وإن لم يدرك أن هذا خير في حينه، فيكون كارها ولكنْ ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ﴾

والمدد الذي يساعد على كشف الأسرار حتى وإن كان مخفية في قاع الــبحار فإنه أيضا يلهمنا الصبر؛ ليتحمل الإنسان هول ما اكتشف واستبان لـــه فقــد يحدث ألماً ويذهل عقلا ويفتت قلبا ويشق صدرا وتظلم الدنيا فلا يعرف الإنسان ماذا سيفعل.

وكمـــا أن المـــدد يكشف الأسرار ويلهم الصبر فإنه يهدي إلى الفعل الســليم.. وهذا الفعل السليم قد يناقض ردود فعل البشر في الأحوال العادية وبالتالــي يكون مختلفا وغريبا أو حتى شاذا ولكن لأنه من هدى الله ومدده فإنه يكون سديدا وليس كل سديد بمألوف وليس كل مألوف بسديد.

وإذا ما أصبح البصر حديدا والقلب رزينا والعقل مستنيرا بالفعل يكون مسئولا عن حكمة بليغة وسداد في الرأي وسمو في السلوك.

ولـــيس كـــل إنسان يصله هذا المدد المباشر من الله. ومثلما أن الهدية مشـــروطة ومـــربوطة بالمشيئة فإن المدد مشروط ومربوط بصفاء النفس وسعة القلب ونقاء العقل من سوء الظن.

وهكـــذا كان صاحبنا بحق. نفسه خالية من الضغائن والأحقاد. واسع القلـــب الذي تشبع بالرحمة وامتلأ بالتسامح، نقي العقل إلى حد الثقة في أن كل إنسان داخله طيب وإن بدا عكس ذلك من الخارج.

لقد تحلى هذا الرجل بالشروط الثلاثة التي تجعله مستحقا للمدد الرباني الـــذي يكشـــف المســـتور وليثبت القلوب ويهدي إلى الرأي السديد ويسمو بالسلوك وذلك دون اجتهاد يذكر وإنما هو وحي وإلهام.

فـــي لـــيلة دخل هو وزوجته إلى الفراش ليناما.. جاملها سلطان الـــنوم فنامت هي فورا أما هو فظل مؤرقا دون سبب مع أنه في الأحوال العاديـــة كان يسبقها هو في النوم لشدة تعبه اليومي وتظل هي مؤرقة من بعـــده لأسباب ما. في هذه الليلة بالذات جفاه النوم. فذهب إلى حيث تتراكم الكتـــب بغير نظام وانتزع دون تحديد كتابا دون حتى أن يلتفت إلى عنوانه لعلـــه يكـــون مملا فيجبر النوم على الدنو منه. ورغم أن من عاداته قراءة الكتاب من الصفحة الأولى إلا أنه فتح الكتاب بالقرب من منتصفه حتى لا يكون لقراءته أي معنى يثيره فيضاعف من يقظته لم يكن جادا في أن يقرأ ليـــتعلم أو يســـتمتع وإنما أراد أن يبعد عقله عن مصارعة النوم حتى يأتيه طائعا. فتح الكتاب على صفحة لم يكن يقصدها فوجد ورقة مطوية تصور أنه هو الذي دسها يوما ففتحها..

تسمرت عيناه عند الكلمة الأولى في السطر الأول: حبيبي فتصور أنه أحد خطابات زوجته إليه في العصر الملتهب فدفعته قوة هائلة إلى أن يقرأ ليســـتعيد ذكرى جميلة تذهب عنه بعض الاندهاش الذي يشعر به من جراء فتور غير عادي من جانب زوجته بدأ منذ وقت غير قليل يزيد على العام. وفـــي منتصـــف الخطاب اكتشف أنه ليس المعنى بهذه الكلمات لأن هناك

إشـــارة لحـــوادث لم تقع بينهما. وحين مر بسرعة البرق على بقية كلمات الخطاب تيقن أن هذه مسَوَّدة خطاب تعده زوجته لترسله إلى رجل آخر.

كتبت الزوجة إلى الرجل الآخر تقول:

أنت طاقة الحياة الوحيدة المفتوحة لي الآن تمدني منها بالهواء وأنظر مـــن خلالهـــا لأطالع جمال الدنيا فهذا بحر وهذا نهر وذاك بستان وورود وتلـــك طيور محلقة وهذه شمس ساطعة وهذا قمر منير.. الحياة كل الحياة بعناصـــرها. لولاك لكانت حياتي قد استمرت صخورا جرداء بلا لون وبلا رائحة.. الألوان والروائح دليل حياة تتجدد، دليل نشاط وتفاعل، دليل حركة ودون ذلك الموت. ولذا فالألوان تبهجني والروائح تثيرني.

وأنـــا حيـــن أصف حياتي بأنها كانت صخور جرداء، فأنا أعني أنها كانـــت صـــلبة وصعبة وجافة وعقيما فهذه هي حال الصخر، أما أنت فقد جئـــت بالماء الذي يرطب الأرض ويلين له الصخر وينبت الزرع وينشر الروائح ويصبغ الألوان فتحوم الطيور من حول المكان وبذا يكتمل الخريف الذي يعزف ويغني أنشودة الحياة.

ولذا فأنا شفيت من الآلام التي أنهكت جسمي وأحارت الأطباء، عادت الحـــيوية والنشاط ، ملأني السرور وتطايرت مني البهجة لتعدى من حولي وعدت أستسيغ الفن وأتشرب الجمال، بل أصبحت متقبلة لكل جمود حياتي داخل البيت. لقد أعانني حبك على مزيد من التحمل وحصنني بالصبر وشد من أزري.

تســـألني عـــن حياتـــي الشخصـــية فأقول لك إن زوجي رجل طيب. تزوجـــته منذ عشرة أعوام بعد انتهائه من الدكتوراه في الخارج وعاد إلى الوطن ليعمل أستاذاً في الجامعة.

زواج تقليدي رجل مناسب جداً لفتاة من أسرة طيبة أتمتع بجمال فائق، لم أكمل دراستي الجامعية وإن كنت أتمتع بكل الإمكانات الثقافية التي تفوق في عمقها ما تعلمه خريجو الجامعات وأكتشف أن زوجي على درجة عالية جـــداً من الثقافة من الصعب الدنو منها كان معتداً بنفسه ولكن ليس إلى حد الغرور ، متميزاً في مهنته إلى أقصى درجة، مهاباً ومحترماً اجتماعياً ، ذا ســعة ماديـــة تسمح بحياة رغده ، يفرق بيننا خمسة عشر عاماً في العمر ولكـــنها كانـــت بالنسبة لي ألف سنة لاتزانه الشديد وحكمته البالغة وثقافته الرفـــيعة وجديته ليس إلى حد التشدد ولكنها تجعل الحياة شبه متجهمة جافة ملـــولاً ذات لـــون واحد ونغمة واحدة ورائحة ثابتة ، ثم تدريجياً زال عنها اللـــون والـــنغمة والرائحة، أي تجمدت فأصبحت ميتة لا توحي إلا بالكآبة كنت لا أفهمه حين يتكلم في أمور السياسة أو الثقافة أو العلم، كنت لا أفتح فمـــي حـــتى لا أبـــدو بلهـــاء إذا كنا وسط جماعة، وقد أمسك هو بناصية الحديث. لم يكن يدانيه أحد في طلاقته ولباقته ، وانشغل كثيراً ما بين عمله الخاص والعمل الاجتماعي والعمل السياسي.

فلـــم أكن أراه إلا في وقت الفراش متهالكاً متهاوياً يسقط على الفراش وقد نام قبل أن يتمدد جسده نوماً هو أقرب إلى فقدان الوعي..

وكـــان شديد التدين ممسكاً على دينه فحرمنا من كثير من المتع شبه البريئة التي تناسب عمري.

وأنجبت ابنة جميلة فباعدت بيننا أكثر لانشغالي بها ثم أعقبتها بالثانية وكانـــت أكـــثر جمـــالاً فأصبحنا نعيش كغريبين في الدار، وربما كان من الممكـــن أن أتفهـــم انشغاله الشديد وربما كان من الممكن أن أنجح في شدة الاســـتمتاع بالحـــياة الأســـرية ولكـــن ما كان يوقفني هو جفافه، وجديته

وصـــرامته، وعدم تمتعه بروح الفكاهة، وعدم رغبته في التنازل ليحب ما أحـــبه وما تحبه كل امرأة في مثل عمري، حتى ممارسة الحب كانت تأخذ طابعـــاً شبه رسمي أي كأننا نؤدي واجباً مفروضاً هذا بالإضافة إلى الهوة العلمية والثقافية بيننا. ولهذا انطويت ورضيت لأنه على الجانب الآخر كان رجلاً طيباً ومخلصاً وكريماً في حدود الضروريات والأشياء التي لها قيمة حقيقـــية، وليس كريماً بالمعنى الذي أحبه وهو شراء الأشياء التي تعجبني مثل كل امرأة.

لـــم ألتفت إلى أي رجل آخر فهكذا تعلمت من أمي التي غرست فينا خشية الله. وجاء اليوم الذي قابلتك فيه فوجدت أنني أقف أمام إنسان يجسد المعنى الحقيقي المتكامل للحياة.. والحياة التي أحبها بالذات وأول ما شدني إلـــيك بساطتك في كل شيء.. في الحديث والملبس ثم تلقائيتك وأنت تتكلم وأنـــت تضـــحك مع مرحك وأنت تلعب وأنت تلهو بما يتناسب مع عمرك الـــذي يقـــارب عمـــري. ثم شدني إليك أيضاً حيويتك ونشاطك، ثم عشقك للحياة وتفاؤلك. ثم في النهاية لغتك السهلة والمفهومة. ويأتي أخيراً إعجابك الشـــديد بي.. أحببت كلمتك التي تصف بها جمالي.. أحببت ملابسي التي أعجبـــتك ، أنوثتـــي التي شدتك.. أحببت مقاطع الأغنيات التي كنت تتغنى بهـــا، وترســـلها لي كرسائل حب ، أحببت نكاتك التي كانت تضحكني من قلبي ، أحببت وأحببت كل شيء منك.. وأحببت كل شيء ينتسب إليك.

ورغـــم أنني أتوق إليك وأحترق اشتياقاً إلا أنني لا أستطيع أن اقترب أكـــثر من ذلك. إن سعادتي وأنا أمسك بيديك هي أقصى طموحي، وأقصى مـــا أقدر عليه. إن يدي هما ملكك وغير ذلك ليس ممكناً. شيء ما بداخلي يمنعني، يوقفني، شيء ما رسخ في داخلي منذ طفولتي ألا أهب جسدي إلا

لـــرجل واحد هو زوجي. ولكن قلبي لا حيلة لي فيه. لم أستطع أن أسيطر علـــيه مـــثل طائر خرج لتوه من سجنه فانطلق بجنون إن قلبي مجنون بك وجسدي يحترق إليك.. ولكن لا.. لا.. أستطيع.. أعذرني وسامحني.. وإلى لقاء قريب يا فرحة عمري القادم. طوى الزوج الخطاب وأودعه مكانه من الكـــتاب وحرص على أن يكون في نفس المكان ثم وضع الكتاب من حيث أتـــى به. ولا يستطيع مهما أوتي من قدرة على التصوير والتخيل والتغلغل في النفس أن يصف حالة الزوج في اللحظات التي أعقبت قراءته للخطاب. وهل تختلف حال رجل عن رجل آخر في مثل هذه الأحوال؟

هـــل من الممكن أن يستجيب رجل بطريقة مختلفة عن رجل آخر في مـــثل هـــذا الموقـــف؟ وقبل أن نتعرف على سلوكه المتوقع فلنقض بعض الوقـــت لفحـــص مشاعره وأفكاره ،هذا الرجل بالذات. هذا الرجل المتعلم المثقف المتدين الملتزم الجاد المحترم المحب لزوجته المخلص لها العاشق لابنتيه الحريص على تنشئتهما تنشئة صالحة أساسها تقوى الله وخشيته.

ليشـــعر هـــذا الـــرجل الآن بالحزن؟ وأي درجة من درجات الحزن؟ والحـــزن على أي شيء؟ أم هو نوع من الأسى مثلما يفقد الإنسان عزيزاً عـــن طـــريق المـــوت؟ أم أنه غاضب وثائر وحانق؟ أم مزيج من الحزن والغضـــب؟ يجـــب ألا نغفـــل التأمل الدقيق والفحص المتأني لأعماق هذا الـــرجل فـــي هذه اللحظات بالذات إنها فرصة نادرة للتعرف على مشاعر إنسان صدم بشكل مفاجئ وغير متوقع في إخلاص زوجته. لا ننسى الثقة المطلقة في الزوجة. لا ننسى أن عقله قبل قراءة الخطاب كان لا يردُ عليه واحـــد على مليون من فكرة أن زوجته قد تميل إلى شخص آخر لا ننسى إحســـاس هـــذا الرجل بذاته وكبريائه. لا ننسى تدينه.. لا ننسى ابنتيه.. لا

ننســى أن الزوجة لم ترتكب الفاحشة بعد بل ترفضها. ولا ننسى امتداحها لــزوجها في أشياء معينة لا ننسى وصفها لحياتها الجافة والصعبة مع هذا الزوج. فهل يا ترى سيلوم نفسه ويعتبر نفسه أنه مسئول عما حدث وربما يخفف ذلك من حدة غضبه وإن لم يمنعه من الحزن؟

واضـــح أن عوامـــل كثــيرة ستتداخل لتحدد مشاعر هذا الرجل الذي نزلــت عليه الصاعقة دون إنذار.. أرق.. فذهب إلى المكتبة.. فانتزع كتاباً بطـــريقة عشوائية بحتة.. ثم يفتحه بدون قصد على صفحة معينة ليجد هذا الخطاب.. أي حظ!! بل أي ترتيب!! وترتيب من؟! أهو ترتيب الله.. وهنا لمع ضوء جديد في رأسه.. إذن لقد دفعت دفعاً إلى هذا الخطاب!! إذن كان هناك قصد أن أقرأ هذا الكتاب!! أي حكمة في ذلك؟ هل هناك هدف؟

ثــم أضـــاء مصباح آخر في قلبه.. هل أراد الله أن يدفعني في الوقت المناســب لعمل شيء أنقذ به أسرتي؟ وأي عمل يصلح في هذا الوقت إلا الطــلاق؟ ولمـــاذا الطلاق؟ أي خطأ ارتكبت؟ مالت إلى رجل آخر!! ومن المسئول؟ بل هي المسئولة.. كان لابد أن تسيطر على مشاعرها وأن تخاف الله ولماذا لم تخف الله أنت وقد هجرتها تماماً إلى عملك ومجدك!! لماذا لا تخـــاف الله وقـــد كنـــت جافاً جامداً كالصخر!! وظل يسأل نفسه عشرات الأســـئلة وقد انصرف عقله إلى تحليل الموقف آخذاً إياه بعيداً عن مشاعره والتـــي لـــم نتعرف عليها حتى هذه اللحظة ربما أراد الله أن يصرفه عن المشـــاعر وجعلـــه يفكـــر في الإجراء السليم يا الله!! وهل من إجراء إلا الطلاق؟ وأين تذهب البنتان؟ وهذه السيدة لم تخطئ حتى الآن فلماذا أدفعها إلـــى الخطـــأ الأكـــبر؟ وأي خطأ أكبر إن الخطأ هو الخطأ!! لا ليست كل الأخطاء واحدة.. هكذا كان يرى الأنبياء في تعاملهم مع مثل هذه المواقف.

كانوا يتحرون هل وقع الخطأ الأكبر أم لا.. لكل درجة من درجات الخطأ عقابها وإذا كان الخطأ هيناً فمن الممكن التدخل للحماية.

اســتيقظت الــزوجة من نومها فوجدته مستيقظاً فاندهشت وسألته عن حالــه فأخبرها أنه بخير، قبل طفلتيه ثم قبل زوجته لأول مرة وخرج إلى عملــه. ولكنه ظل يمشي ويتطلع إلى الناس. لم يشأ أن يجلس في أي مكان بــل ظــل يمشي ويمشي وبعد انتصاف النهار بثلاث ساعات وجد الناس وبخاصـــة الرجال يتسابقون للعودة إلى بيوتهم ولم يكن قد تعود العودة إلى بيــته فــي هــذا الوقت وسأل نفسه لماذا يتشوق الرجال للعودة إلى بيوتهم عصراً فأجاب ليأكلوا مع زوجاتهم وأبنائهم ويناموا، وماذا بعد أن يستيقظوا من نومهم؟

فأجــاب: يعــودون للعمــل ثم يعودون مرة ثانية إلى بيوتهم.. ولماذا العــودة المــبكرة إلـــى البيت وكنت قد اعتدت العودة بعد منتصف الليل؟ فأجاب: لأن الزوجات يشتقن إلى أزواجهن ليلاً.

ابتسم داخله وقرر العودة إلى البيت اشترى زهوراً، وفوجئت الزوجة والبــنات بأنـــه تغدى معهن وسط مزيج من الدهشة والسرور الحذر وفي المســاء عــاد مــبكراً أكل معهن ولم ينم، داعب الأطفال ولاطف الزوجة وشــاهد معهن فيلماً. ويجب أن نتوقع أنه في هذه الليلة نام مع زوجته وفي اللــيل حــزم أمره. خطط للسفر للعمل في دولة أخرى لبضع سنين أطلع زوجته على خطته في الصباح فوجئ بموافقتها وهي فرحة متحمسة.. في غضــون أســابيع قليلة أنهى كل الإجراءات وطار إلى بلد جديد ليبدأ حياة جديــدة كــرجل جديد مع زوجة جديدة. ولم ينس أبداً المدد الذي جاءه من السماء والذي اختصه به الله ليعينه على تضميد حياته.

امرأة تصادق رجلاً

أحمــق مــن يجــزم. وأكــثر حمقا من يدعي أنه وصل إلى الحقيقة المطلقة. وأي حقيقة في عالم يزخر ببلايين البشر عاشوا وماتوا ويعيش من بعدهم غيرهم من كل لون وشكل ولغة!! قوم من بعد قوم، وعصر من بعد عصــر. لا شيء يثبت على حال وكل شيء متغير وكل شيء إلى زوال. وإذا كــنا نتذكر ما حدث من ألف عام فمن ذا الذي يستطيع أن يتذكر الذي حــدث من مائة ألف عام؟ وكيف كان الإنسان وقتها إذا كان قد خلق إنسان وقــتها. كيف فكر وكيف أدرك وكيف شعر؟ أي عاطفة وأي إحساس!! أي شكل للحياة!!

الحقــيقة متغــيرة. الحقيقة كانت حقيقة في وقتها، الحقيقة هي ما تراه وما تشعر به الآن. الحقيقة لا تعمر ولا تستمر بل تحل معها حقيقة أخرى. ولهــذا فهي لا تسمى حقيقة. الحقيقي هو ما كان مستمرا، والحق له صفة الدوام. والحقيقة هي ما كانت ثابتة لا تتغير، الموت حقيقة والشمس حقيقة والقمــر حقيقة لأني أعرفها منذ وعيت الحياة وظلت على حالها حتى هذه اللحظــة. وإن كان السر خفيا فهذا لا يلغي الحقيقة ليس من الضروري أن نفهــم فهما كاملا. ومن يستطيع أن يدعى أنه يفهم كل شيء ؟ بل الحقائق الثابــتة هــي تلك التي تستعصي على الفهم. هي تلك المحاصرة بالأسرار ومغلفة بالغموض لنرى جانبا واحدا فقط دون أن نعرف الأسباب ودون أن نعرف المصير.

هـناك حقـائق مجهولـة الأسباب والمصير، وما علينا إلا أن نتقبل. وعلينا أن نروض العقل أن يقبل ولا يسأل. يكفيك الثبات والدوام والتكرار اللانهائي. وحدودك هي منذ وعيت الشيء على حاله أو ربما من قبل ذلك منذ توافرت لك أخبار السلف. وتصبح حينئذ حقيقة منقولة تعتمد فقط على السـمع. وليس الذي يسمع مثل الذي يرى. والحكماء قالوا لا تصدق إلا ما تـراه عيـناك. وآخـرون قالوا إن ما تراه هو كل الحقيقة وما تسمعه هو نصف الحقيقة.

فمـا تسـمعه إنمـا يتلوث برؤيا الراوي ولذلك فالعهدة على الراوي وذمته.. وربما هي ليست قضية ذمة وإنما هي قضية إدراك الراوي الشيء بطريقـته.. وطريقـته تعني ميوله وهواه وتحيزه وعقده ومشاكله النفسية الكامنة في عقله الباطن. كل ذلك يلون الحقائق فينقلها إلينا كما يراها هو أو كما يريدها هو.. ولذا لم يخلق الله لونا واحدا ولم يجعل الاستنساخ وسيلته لخلـق البشر.. إنما كل إنسان مختلف .. وهذا هو المعنى الأعمق للحرية، حرية أن تختلف.

حـرية أن تكون أنت كما أنت.. حرية أن تقول أنا .. وحين تقول أنا تقولهـا بمـلء فمك وتعني بها أنك المتفرد.. أنك الذات المستقلة الخاصة، وأن لك الحق في أن ترى ما ترى وأن ما تستنبطه إما من وحي إلهامك أو مـن وحـي اجتهادك. ولك الحق حينئذ أن تقول: أنا أرى.. أنا أعتقد.. أنا أظن.. أنا أتصور.. ولكن من فضلك تقول أنا أجزم، أنا أؤكد.. إلا إذا كنت تـتحدث عن الموت وفي هذه الحالة يكون لك الحق فقط أن تقول إن هناك موتاً أو تقول إن الشمس تأتي من المشرق وإن القمر يبزغ كل مساء.. فيما عدا ذلك ليس لك الحق أن تجزم بشيء.. وتذكر أن من يجزم فهو أحمق..

وأكثر حمقاً من يدعي أنه وصل إلى الحقيقة المطلقة. أنا حين أحكي قصتي اليوم فأنا لا أجزم وإنما أحكي ما أشعر وأقول ما أحس وأسرد ما أرى أقرأ مـــا أظـــن أنه يمكن أن يكون حقيقة. وقد يختلف معي كثيرون، وقد يثبت عكس ما أرى وما أقول.. ولكن هكذا أنا.. أنا كما أنا، أنا التي تختلف عن أنت.

أنـــا أعتقد في الصداقة بين المرأة والرجل.. وأنا امرأة أحتاج إلى أن يكون لي صديق رجل.. أبي كان صديقي ولكنه مات.. أخي كان صديقي.. ولكنه هاجر.. حاولت أن يكون لي صديق رجل فعجزت.. فشلت.

أبي كان صديقي. لم يكن أبي إلا حين أمرض، هنا يظهر عليه جزع الآبـــاء.. فيما عدا ذلك كانت تتشابك يدانا في أثناء المشي، ويختلف عقلانا فـــي أثناء الحوار، وتتباين مشاعرنا إزاء موقف أو حدث. كان يأتنس بي وكنـــت أأتـــنس به.. راحة عميقة تشملنا معاً حين نكون معاً.. وحين أوجد معـــه أشـــعر بذاتي المستقلة.. أشعر بكياني المتفرد.. أكون على حقيقتي.. أكون نفسي.. أكون في أصدق حالاتي. أسأل وأسأل أحكي وأحكي.. عراك بالأفكار يعقبه مصالحة أو لا يعقبه.. وإذا اختلفنا فالاحترام يفرض وجوده فيجعل كلاً منّا لا يجزم بأن رأي الطرف الآخر خطأ مطلق ولكنه خطأ قد يحدث صحته فيما بعد وأن رأيي أنا الذي أعتقد أنه صواب قد يثبت خطؤه في الغد تعلمت منه الكثير، وكان يقسم أنه يتعلم مني. ولقد اكتشفت معه أن الشـــيء الوحيد الذي يعطيك الأمان من خلال إنسان آخر هو أن تتمتع معه بحرية أن تفكر وأن تفصح عن أفكارك دون خوف.

هكـــذا يكشـــف عـــن حكمة الطرف الآخر وعن رحابة فكره وسلامة مفاهيمه. لقد علمني كيف أسبح وبعدها أخذنا نسبح معاً ونستبق ولا يغضب

إذا سبقته بل كان يتيح لي فرصة الانتصار في معارك فكرية نختلف حولها. لم يكن مضمون الفكرة هو المهم، بالدرجة الأولى ولكن كان أسلوب معالجة الفكرة هو الأهم أو أهم الأهم..

ولذا منحني أبي الحرية الكاملة فكنت أحلق بعقلي في الاتجاهات الأربعة كيف أشاء وكنت أدب بقدمي في كل مكان لا يحميني من السقوط في حفرة إلا نصيحة تقول فليكن قصدك مخلصاً وهدفك معلناً وتوجهك للخير ومسعاك للحق وعشقك للمعرفة ولا تنظري تحت قدميك فقط ولكن تَطلّعي إلى الأمام فالحذر هو وليد التوقع والتنبؤ.. لم يعطني خريطة فالخريطة تحد من الحرية لأنها تحدد الطريق ولكنه أعطاني من حكمته وتركني لأمضي وحدي.

ومثلما علمني سباحة العقل علمني أيضاً سباحة القلب حتى أجدت هذا النوع الصعب من السباحة والتي تكسبك شيئاً خطيراً وهو التوازن وعدم التمادي والشطط، تعلمت كيف أضبط درجة الحرية فلا أسخن عواطفي إلا حد الاشتعال ولا أبردها إلى حد التجمد..

والتوازن معناه أيضاً أن تكون ردود فعلي الوجدانية ملائمة للأحداث والوقائع المحيطة ، فلا أثور إلى حد التدمير ولا أغضب إلى حد العداوة ولا أحتد إلى حد الاعتداء اللفظي غير اللائق الذي يقود إلى خصومة.

لقد أحببت أبي ولكنه مات فجأة ففقدت الصديق.. وكنت تخرجت من الجامعة متفوقاً.. وأخذت طريق العلم أبحاثاً ودرجات علمية فاستغرقني إلى الحد الذي لم يدعني ألتفت إلى أحد من حولي.. ولكن حنيني للصديق يجعلني أقترب من شقيقي أكثر وأكثر.. ورث عن أبيه سعة العقل وسعة القلب.. وكان أكثر ما يسعدني هو أن نلتقي في نهاية اليوم ومع بداية الليل

لنـــتكلم.. نتكلم ونتكلم ونتكلم ولا نكف عن الكلام إلا بعد أن يشعر كل منا بالإشباع الكامل وكأنك تتناول وجبة دسمة ومتنوعة ولذيذة بعد طول جوع.

وضاقت الحياة بشقيقي في بلدته لأنها لم تسع طموحه فهاجر.. فتلقيت الطعـــنة الثانـــية التي اصابت قلبي وعقلي في آن واحد.. وفقدت صديقي الثاني وعشت وحيدة بين كتبي ومعلمي وقد تعدى العمر الخامسة والثلاثين دون أن أفكـــر في الزواج أو أسعى إليه أو يسعى إليّ أحد لأن في بلدي لا يمـــيلون إلى المرأة التي أحبت العلم وأخلصت له.. إما الإخلاص لرجل أو الإخلاص لعلم.. لا يمكن الجمع بين الرجل والعلم. إنهما لا يجتمعان. من أحبت العلم فعليها أن تضحي بالرجل، ومن أحبت الرجل فعليها أن تضحي بالعلم، ولم تكن هذه هي الحقيقة فقد كنت أتمنى أن أكون زوجة وأمّاً.. أن يكون في حياتي رجل يأخذ موقع الزوج ولكن يكون صديقي.. كان شرطي الوحيد أن يكون زوجي صديقي.. ولذا كان لابد أن تكون هناك في البداية مؤشـــرات وشـــواهد وأدلة تُطَمئِن إلى إمكانية صداقة الزوج مثلما نعمت بصداقة الأب والشقيق.

حين وصلت إلى الخامسة والثلاثين تنبهت فنظرت حولي كان الرجال الذيـــن يقتربون من عمري قد تزوجوا. ومن هم دون ذلك كانوا تلاميذي. وأدركـــت أننـــي في مأزق، وما كان يلح علي ليس هو الاحتياج إلى زوج بقدر احتياجي لصديق.

واختصـــاراً لعامين آخرين من القلق والاشتياق أقول إن زميلاً قد عاد مـــن إعـــارة استغرقت عشر سنوات.. تركنا وهو دون الثلاثين وعاد وهو يقـــترب مـــن الأربعيـــن زوج وأب لثلاث بنات يتدرجن ما بين الخامسة والعاشرة.. قبل سفره كان بيننا تعاون علمي أتاح لنا استئنافه بعد عودته.

ومــن حديث العلم انتقلنا إلى حديث الفلسفة، في البداية فلسفة العلم ثم فلســفة الحــياة، ثــم علاقة الفن بالعلم ثم مشكلة الإنسان.. وقررنا معاً أن مشــكلة الإنســان المعاصـــر هي عزلته الفكرية بسبب القيود التي أفقدته حريته.. ولمزيد من الاختصار أقول إنه حل محل والدي وشقيقي فأصبحنا نــتكلم ونتكلم ونتكلم. وكان هذا الكلام بالطبع يستغرق ساعات وساعات.. ولأن الناس اعتادوا على مقولة أن رجلاً وامرأة إذا اجتمعا فلابد أن يكون الشــيطان ثالثهما.. فإن الهمسات غير الطيبة سيئة الظن تناثرت من حولنا ووصل بعض هذا الرذاذ السام إلى زوجته وكانت متعلمة ومعدومة الثقافة حادة الطباع شديدة البطش إذا اقترب أحد من عرينها قفزت في وجهه بكل أظافرها وأدمته.

مصيبتي وأقول إنها مصيبة أن أحداً لم يصدق أن ما بيني وبين زميلي مــا هو إلا صداقة، فمعظمهم جزم بأنه لا توجد صداقة بين رجل وامرأة.. وبعضــهم جزم بأنها إن وجدت لحين، فسوف تتحول إلى حب.. وأما سيئ الظن فقد أكد أن صداقة الرجل والمرأة تتخذ ستاراً لعلاقة غير شرعية.

طاردتني الزوجة في كل مكان.. أساءت إلى سمعتي.. انتهزها فرصة المنافســون مــن الزملاء والزميلات وبخاصة الزميلات للنيل منه ومني.. كــان الإعصار أقوى من قدرتنا على التحمل فقررنا أن نبتعد ، قررنا ألا نــتكلم ، قــررنا حــرمان نفسينا من لحظات السعادة والإشباع والإرضاء والهناء التي كنا ننعم بها علناً وليس خلسة.

وأراد صــديقي أن تكون لقاءاتنا بعيدة عن أعين الناس فرفضت. بدأ يحادثني همساً عبر التليفون فرفضت الصوت الخفيض الخائف.. أنا زميلة ولســت حبيبة.. أنا صديقة ولست عشيقة.. وأنا أحب صداقة الرجل مثلما

أحـــب صـــداقة المـــرأة.. صـــداقة الرجل هي تعويضي عن صداقة الأب وصـــداقة الشـــقيق.. أما الصديقة فهي أم أخرى وصديقة أخرى.. الرجل ممكن أن يوجد في حياة المرأة بأدواره المختلفة.. والحبيب غير الصديق.. الحبيـــب ملكية خاصة.. أما الصديق فملكية عامة.. الحديث مع الحبيب قد يكـــون همساً أما الحديث مع الصديق فيكون جهاراً.. اللقاء مع الحبيب قد يكـــون في أماكن خاصة لأسباب خاصة، أما اللقاء مع الصديق فيكون في أماكن عامة.. وحنيني للصديق غير حنيني للحبيب.. الحنين للحبيب يشمل أشياء أخرى لا توجد في الحنين للصديق.

كنـــت واضحة وضوح الشمس.. وكنت صادقة صدق الرسل.. وكنت نقية نقاء الملائكة.. وكان جسدي بريئاً من أي ميل.. وكانت خططي نظيفة من أي مشاريع أبعد من حدود الصداقة.

وزاد بـــي الألم للفراغ المخيف الذي عشت فيه بعد أن اخترت العزلة ورفضت كل محاولات للقاء.. وجاءتني فكرة أن التقي بزوجته وأوضح لها الحقيقة، ظنت أنني أحاول خداعها، برزت عداونيتها بحق الدفاع عن النفس وأن اســـتخدام الأســـلحة الســـامة يكـــون مشروعاً في مثل هذه الحالات.. ســـخرت مـــن مفاهيمي عن صداقة الرجل والمرأة.. جرحتني بظنها أنني مـــتلهفة على زوج لفوات قطار الزواج.. أجهزت على كرامتي بيقينها عن علاقة جنسية بيني وبين زوجها وفي النهاية طلبت مني الابتعاد عن زوجها وحذرتني من أي محاولة خفية للاقتراب وتوعدتني بالتدمير ثم طردتني.أين الحقـــيقة؟ ألا يـــريد أحد الاعتراف بصداقة الرجل والمرأة.. هل يعني هذا الإجماع أن هذه هي الحقيقة.. ولماذا لا أكون أنا على حق وهم جميعاً على باطل؟

لقـــد ضــــاعت الحدود والفواصل بين الكذب والصدق.. بين الأصيل والـــزائف بيـــن الحـــق والباطل فلا تستطيع أن تتعرف على نقطة البداية لتفرقها من نقطة النهاية. إنه تشويش على القلب. إنها غلبة الأنانية والهوى والأحقـــاد والغـــيرة. إنـــه اندحـــار للهدى الذي يقود عقل الإنسان ويلهم ضـــميره.. إنه الجهل والجهالة والضلالة. إن ضياع الحدود أضاع الإنسان مثلما أنا ضعت. أين أنت يا أبي.

امرأة طموح

إذا لم يتسع الإنسان إلى أبعد من حدود الأرض ضاقت الأرض به، وإذا لم يتســع قلب الإنسان إلى ما هو أبعد من حدود السماء تراجعت خشيته وزاد جــبروته، فالإنســان محــدود الحواس من سمع وبصر وشم، لكن عوضه الخــالق عــن هذه المحدودية بلا محدودية عقلية وقلبه، ولا محدوديةُ عقله تجعله سيد الأرض، ولا محدوديةُ قلبه تجعله أخشع المخلوقات.

ومن خشوعه تنضج الرقة والرحمة والشفقة والتواضع، ينثر المودة فيحصــد حبا، وينشر الحب فيرتد إليه أمنا وسلاما، ولا تصح لا محدودية العقــل بــدون لا محدوديــة القلب، وإلا فقد العقل القدرة على البحث عن الحقــيقة التــي تزيده خشوعا فيطغَى، ولا تصح لا محدودية قلب بدون لا محدوديــة عقــل وإلا فقدت القلوبُ البصيرةَ التي تلهمها وتوجهها فتضل وتهوى، فالعقل نور القلب، والقلب نور العقل.

والإنســان المحدود يقبع حيث يكون لينتظر ما يأتيه ولا يسعى إليه، يرضــى بما عنده ولا يطمح إلى مزيد، ليعيش لحظته ولا يقلق على غده، دائــرة اهتمامه لا تمتد إلى أبعد مما ترى عيناه، وتسمع أذناه، وحين يغادر الحياة لا يكون قد ترك أي أثر خلفه.

أما الإنسان الطموح اللامحدود فيشب برأسه ويسترق السمع ويمعن النظر ويمده إلى بعيد مترقبا ومتنبئا يكمل النواقص من خياله، فيتصور ما هو ليس بموجود فيوجده، يتمنى أكثر مما هو متاح، فيحصل عليه، يخرق الواقــع لــيطل على المستقبل فيرى ما لا نراه، آمالا وخيالا بعد أن كانت

حلمـــا، ثم يحولها إلى حقيقة واقعة يهديها إلى المستقبل. ولا توجد درجات إلى الطموح، فلا يقال مثلا طموح متوسط أو طموح محدود، أو طموح بلا حدود، فالطموح هو الطموح، الطموح متجدد، كلما وصلت إلى نقطة فإنك تســعى إلى ما هو أبعد منها ولا تقول كفى حتى إذا لم تكن تملك إمكانات تحقيق هذا الطموح، وفي هذه الحالة تظل عند منطقة الحلم بأن ما تحلم به يــتحقق، والحلــم هو الذي يمنحك الرغبة في الحياة والاستمرارية ويهبك الحماسة، ويدفعك إلى السعي ويجعل للحياة طعما وقيمة.

لكــن الفرق بين طموح وطموح هو في درجة مساندة القلب وأيضا في حدود اتساع دائرة القلب أي في درجة لا محدوديته.

فهناك طموح بقلب وطموح بلا قلب، وهناك طموح لا محدود القلب، وطمــح له درجة في هذه اللامحدودية، ودور القلب ليس في تحديد درجة الطمــوح وحدوده وإنما في تحديد مضمون الطموح، فالطموح في حد ذاته نشـــاط عقلـــي بحـــت يتسم بالتجريد ويتعلق بالهدف وليس الوسيلة، فيحلم الإنسان بأن يكون الأنجح أو الأقوى أو الأعظم أو الأجمل، أو الأكثر علما أو ثقافة أو ثراء، أو أن يكون الأشهر، ولكن في أي شئ!!

ومـــا الوســـيلة!! فهذا هو نشاط القلب، وذلك النشاط النوراني الذي يهـــدف إلى طريق معين وبوسائل معينة ملتزما بكل المبادئ الممكنة سواء التـــي نزلت علينا من السماء أو تلك التي اخترعها الإنسان فقد يسرق أحد ليكون ثريا في المال، إذن هو اختار المال في بند الثراء.

أي انتقل من التجريد إلى التخصيص، واختار السرقة كوسيلة لتحقيق الطمـــوح وقد يطمح إنسان آخر لثراء المال ولكن عن طريق العمل الجاد. وقد يطمح إنسان آخر للثراء في العلاقات الإنسانية (وليس المال) فيلجأ إلى

مســاعدة الــناس وحــبهم لينمي شبكة علاقاته الإنسانية التي يطمح إليها ويتمــناها. وقد يطمح الإنسان أن يكون مشهورا، ولكن في أي مجال وبأي وســيلة فهــذا هــو عمل القلب، والقلب المحدود هنا يخذل صاحبه فيجعله يخــتار مــثلا المال عن طريق السرقة، والقلب غير المحدود يجعله يختار ثراء العلاقات الإنسانية عن طريق الحب.

أنــت وعقلك وأنت وقلبك، وهذا هو حظك في الحياة، قد يكون حظا عظــيما وقد يكون حظا تعيسا، وذلك ببساطة شديدة جدا يتوقف على ما إذا كنت تبحث عن الزينة أم الباقيات الصالحات.

وهــذه القصــة بطلتها امرأة طموح، اتسع لديها بشدة طموح العقل وانحصــر لديها بشدة طموح القلب وتراجع إلى حد الضمور الكامل، لذلك ظل المضمون مجردا لمدة طويلة فكان طموحها أن تكون شهيرة فهذا ليس مهمــا، وكــيف تكــون ثريّاً فهذا ليس مهمًّا أيضا المهم أن تحقق غايتها، وعليها أن تجد الوسيلة، أي وسيلة، والإنسان الذي يستمد به حُلمه ويطغي على نومه ويقظته يصيبه نوع من الهوس فيظل قلقا مؤرقا مهموما مشغولا بالبحــث عــن الوســيلة وإن كان يقابلها التضحية بالغالي والثمين من قيم ومبادئ ومثل ، مناضلا ومتحديا ومكتسحا للحدود والقواعد والأسس أو ما يســمى بالتقالــيد والعــادات والأصول، المهم هو الوصول والموت دونه، خاصــة إذا كانــت الغايــة براقة تخطَف الأبصار وتذهل الألباب وتدغدغ الشهوات.

ولا شــيء يفعل ذلك بالإنسان إلا طموح الشهوة والمال، ولكن ليس أي إنسان وإنما إنسان له قلب محدود فتضيق لديه مساحة العواطف وينعدم عنده وزن الضمير وتعلو لديه إلى الحد الأقصى سيطرة الغرائز.

فهـو إنسـان جـائع لا يشبع، عطش لا يروي ، لديه شعور بضآلة الـذات وضـعف الكـيان و محدودية المكانة وانعدام التأثير فأصابه شره للشـهرة لـيعلو فـوق الـناس وتشـخص إليه الأبصار وتلتوي الأعناق التفاتا إليه.

هكـذا كانـت صاحبتنا، سيدة صغيرة دون الثلاثين جميلة وشاعرة تمـتلك سحرا يشع من عينها ومن طريقتها في إخراج الكلمات عبر شفتيها الرقيقتيـن الحالمتين فيأتي صوتها منغما ومتقطعا بطريقة مختلفة عن بقية الناس يكاد يميزها هي وحدها، وابتسامةً تشي بالبراءة لمن ليس لديه خبرة بالنساء أما الخبير فيلتقط من هذه الابتسامة إيحاء ما يختلف حسب الموقف أو حسـبما تهـدف هـي خاصة في مجال تعاملها مع الرجال ذوي الثراء وذوي السـلطة، وكـان عشقها للمال فسعت إليه أولا أو ربما هداها عقلها الشيطاني إلى أن الشهرة سوف تجلب لها المال.

فسـعت إلى كبار القوم للتعرف بهم، تقبلها الرجال بقبول حسن لما كانـت توحي به ابتساماتها من إعجاب وانبهار ودعاوي غامضة لأمر ما تفصـح عـنه بالكامل فيحار الرجل منهم ولا يتورع عن المحاولة ليجرب حظه، وكانت هي من الذكاء بحيث لا تروي الغليل وإنما تمد الحبال وتخلق الأعـذار وتفتعل الأحداث دون أن تكشف عن الأسرار، ومؤجلة إياها للقاء قادم تماماً مثلما كانت تفعل شهرزاد.

وهذه هي لعبة المرأة الذكية التي يكون لها مآرب أخرى غير الحب والجـنس للتأثير على الرجال الذين يملكون تحقيق أحلامها، مجرد وعود، ولكـن لا شـيء يـتحقق، ولهذا يظل الرجال في حالة شوق دائم ومتجدد والأمل يحي القلوب، ولهذا يجزلون لها العطاء. اقتربت من أن تكون نجمة

فـــي اللقـــاءات العامة، تعرفت على الكثيرين رجال سياسة ورجال أعمال ورجال سلطة، لم تكن ترحب بها السيدات.

كانـــت تصحب زوجها خلفها، كان هو أيضاً لديه أحلام من الصعب أن تتحقق لضعف إمكاناته، لكنها بذكائها داعبت خياله بأن امتدحت قدراته وأعلـــت من شأنه، ثم وعدته بأنه من خلال علاقتها ستجيء الفرص حتى قدمـــيه، فظـــل يتبعها أينما ذهبت. وكانت تقدمه للرجال المرموقين الذين تـــتعرف إلـــيهم، وفهموا هم أيضاً طبيعة مشكلته فظلوا يعدونه دون تحقق شيء فهو معدوم الموهبة، وما أقسى الأحلام دون موهبة.

هـــنا يضعف الإنسان إلى حد تصديق اللامعقول ولو كان في صورة مـــزاح وسخرية، كانت النكات تدور حوله دون أن يدري أنه هو المقصود بها.. وكانت النظرات يتم تبادلها مع زوجته دون أن يفهم لها معنى أو دون حـــتى أن يـــراها أو في الحقيقة هو لا يريد أن يراها، لأنه من خلال هذه النظرات وهي نظرات اشتهاء الرجال لزوجته سيقترب أكثر من حُلمه. أما هـــي فقـــد قطعت خطوات لا بأس بها في طريق الشهرة، ثبتت قدميها في مجـــالات معينة، أصبح اسمها يكتب بحروف أكبر. أما هو- أي الزوج- فظـــل في مكانه بل ربما تقهقر لأنه أهمل عمله الأساسي في انتظار الوعد الأكـــبر بالشهرة والمال، وكسبت هي بفضل جمالها وبفضل موهبتها مالاً أكـــثر مـــنه فزادت سيطرتها وزاد خضوعه، وهنا ظهر بوضوح جبروتها وعنفوانها، فكان إذا اعترض على أي شيء هددته بالطلاق فيتراجع بأدب ويستسمحها ويطلب منها الغفران فتعفو عنه شريطة ألا يعود إلى فعلته.

كان قوياً فضعف، وكان أكثر مالاً فافتقر كان القائد فتحول إلى عبد وتشهد الأيام السابقة على خروجها للحياة العامة قسوته وعنفه معها، كانت

تـــتكوم تحـــت هـــول ضرباته، كانت تجثو على ركبتها طلباً لغفرانه، لم تكن تنطق في حضرته، لم تكن تجرؤ أن ترفع عينيها إلى رجل وإلا بطش بهـــا، كانـــت مشكلته الشك، ووصل الأمر إلى اتهامها بالفاحشة دون ذنب حقيقي.

ولعلها اكتشفت هي أنه مريض وضعيف من الداخل، ولعلها أدركت بســـهولة محدوديـــة موهبـــته ولعلها أيضا شعرت بتحرقه للشهرة والمال، ولعلهـــا – وهذا هو الأهم – توصلت إلى هذا النوع من الرجال من الممكن الســـيطرة علـــيه تماما بمداعبة أحلامه ومغازلة رغباته وأنه على استعداد للتـــنازل عن أشياء كثيرة في سبيل الوصول إلى أهدافه حتى ولو كان ذلك علـــى حســـاب مقدساته التي ارتبط بها طوال حياته والتي نالت من أجلها كثـــيرا من الضرب والعديد من الكدمات ، وربما الكسور أحيانا ، عرفت هذه المرأة بذكائها العام وذكائها الأنثوي وحسها الشيطاني أن الرجل الذي يضـــرب امرأة ويسبها هو من أضعف الرجال، وأن الرجل الذي يشك في امـــرأته الشـــريفة هو من انقص وأمرض الرجال، فوضعت خطتها بتؤدة، وخطـــوة خطـــوة، اســـتثمرت جمالها الحار وأسلوبها الشيق وقدرتها على المـــناورة والتأثـــير وخرجت إلى السوق بحثا عن الشهرة والمال لإرضاء جوعها الأزلي وعطشها اللانهائي.

وكلمـــا أحـــرزت انتصارا تهاوى زوجها، درجة ارتفاع من جانبها يقابلهـــا انخفـــاض من جانبه، وأصبح الجميع ممن يعرفونها مطلعين على أسرار الحكاية، أما أصل الحكاية أو مفرداتها فهو رجل قليل الموهبة يطمع فـــي الشـــهرة والمـــال، وامرأة موهوبة أكثر في أنوثتها تطمع في الشهرة والمـــال. إذن يجمعهما الشراهة، أما هو فمهزوز أو أصبح مهزوزا مثيراً

للشـــفقة والرثاء، وأما هي فقد أصبحت ثابتة القدمين مثيرة لشهوة الرجال المشغولين بالنساء، ومثيرة أيضا لإزدراء العقلاء من النساء والرجال.

ولا أحـــد يعـــرف علـــى وجه الدقة هل زلّت هذه المرأة أم مازالت متمســـكة بشـــرفها، ومســـألة التمســـك بالشرف تعريفها عند بعض الناس وبخاصـــة البسطاء هو عدم النوم مع رجل غير زوجها، أما البعض الآخر فـــيرى أن استغلال امرأة لجمالها وتعمد إثارة الرجال والإيحاء لهم جنسيا هو قمة عدم الشرف، ومازال القليل من الناس يرى هذه المرأة معذورة.

فهـــي طمـــوح ذكـــية وجميلة تزوجت من رجل محدود غير مقنع، وبخاصـــة أنـــه فيما بعد سقط من عينها حين شك فيها واتهمها بالزنا، هنا يـــنغلق عقـــل المرأة تماما في وجه زوجها مثلما ينغلق قلبها، ويصبح من حقهـــا أو يصـــبح من المتوقع أن تعجب برجل آخر يغزو عقلها أولا، ثم يغزو قلبها، رجل مقنع، رجل أقوى منها بعقله وليس بعضلاته، رجل أقوى منها بحنانه وليس بقسوته، رجل واثق من قدراته، رجل ناجح أو متميز، أو مبدع.

ولكـــن بعض هؤلاء الرجال المتميزين يكون لهم مآرب أخرى، إنهم مـــن هواة أكل لحوم البشر وبخاصة لحومُ النساء الجميلات وكل شيء له ثمن، فإذا أردت الشهرة يا سيدتي فعليك أن تدفعي الثمن من حر لحمك.

وإذا أردت المـــال فمن البديهي أيضا أن تدفعي بكل لحمك، هذا هو قانون سوق الحب، قانون العرض والطلب هذه هو العدل. أعود فأقول أنه لا أحـــد يعـــرف على وجه الدقة ما إذا كانت هذه المرة قد زلت أم إنها ما زالـــت تقف بالباب. وعلى كل حال فإنه من المتوقع لها الزلل قريباً خاصة أمام إغراء كبير تنهار أمامه وتسلم .

والمـــتوقع أيضــــاً إن زوجهـــا المريض بالشك والذي يتغاضى عن شكوكه مرحلياً حتى يحصل على ما يريد من مال وشهرة سيعرف بزللها ، ومن الممكن أن تتخيل سيناريو ضعيفاً نسبياً يتمثل في أنه في يوم سيسترق الســـمع لمكالمة تليفونية مع أحد الرجال ، وفي هذه المكالمة سيسخران من الــزوج ويـــتهمانه بالغباء والغفلة وانعدام الموهبة ثم يتبادلان الغرام عبر أســـلاك التلـــيفون ، وهـــنا يدخـــل عليها الزوج والذي لا يمتلك غير قوة عضـــلاته ويخـــنقها بكلتا يديه حتى تموت بينما هو يردد : يا خائنة .. يا خائـــنة ، ومثلما يحدث في كل السيناريوهات الضعيفة سيذهب ليسلم نفسه إلى الشرطة .

ولكـــن القانون في مثل هذه الحالة يتعاطف مع الزوج القاتل فيخفف مـــن العقوبـــة وربمـــا يحصل على البراءة ليرعى طفلته المراهقة وطفله الحدث.

الشياطين تتحدى مدينة

عم الفساد في الأرض بعد أن ولد جيل جديد من الشياطين لا يعرف اليأس إلا مدينة واحدة ظلت على عنادها لا تستسلم أبدا يغمر نور الله قلوب ســكانها فلا يقربون رذيلة، رحمة من الله وتواصلا مع رحمة ربطت بينهم فنعموا بالأمن والسلام، كانت المدينة تنام بعد صلاة العشاء تستنشق الورد حــتى تصحو قبل الفجر لتشرب الندى حتى أخر قطرة، فتنتعش وتستبشر ويهب سكانها فرادى وجماعات متجهين نحو بيت الله، وحين يعلو الأذان لا تجد أحدا إلا وهو قائم يصلي.

وفي هذا الوقت تخلو المدينة من الشياطين تماما وعموما فإن زيارة الشياطين إلى هذه المدينة تباعدت حيث لا أمل في غواية.

تحدي الشياطين ليس بالأمر الهين لأنه يقلب الموازين ويهدد الفكرة الأساسية من عملية الخلق ويلغي المفهوم الواقعي لطبيعة البشرية فلا تسمع من الناس إلا الحمد دون الاستغفار وطلب الرحمة دون المغفرة.

وحرصــا علــى الــتوازن، وبدافع شهوة الانتصار، فإن فريقا من الشــياطين الجدد المدربين بالذات على غواية العابدين والمهرة بالتحديد في اخــتراق قلــوب الزاهديــن قــرر تكثيف الجهود في هدم حصون الورع والخشية التي تغلف قلوب أهل المدينة مستخدمين أسلوبا جديدا وهو إطلاق ســهم الغواية حين يكون الإنسان في أقرب مكان من الله ملامسا أو يكاد،

فـــإذا هوى الإنسان واستسلم فإنه يفقد الأمل في أي قوة تحميه في المستقبل ويؤمن بقوة الشيطان اللامحدودة بل ربما يترسخ لديه مفهوم جهنمي هو أنه كلما اقترب من الله كلما قلت مناعته وزادت فرصة انزلاقه.

قـــبل الفجـــر بقليل هبطت الشياطين المدينة المؤمنة، رصدوا حال القلـــوب فلـــم يعـــثروا علـــى قلب واحد به مرض، رصدوا حال المقاومة فوجدوهـــا أصـــلب مـــن الحديد، فاجتهدوا في العثور على أصلبهم والذين تصـــوروا أن الشـــياطين لـــن تهزمهم أبداً لمتانة الصرح وصلابة البنيان ورسوخ القواعد، نعم رسوخ القواعد، هذا هو الأهم تَسمَّعُوا فوجدوا أربعة تستمع السماء إلى تسابيحهم باهتمام لأنها صادرة عن نفوس خاشعة وقلوب عاشقة وألسنة طاهرة فتأكدت الشياطين من رسوخ قواعدهم.

أولهم شاب لم يرتكب معصية قط، متعته في العبادة والعمل، ورغم قوتـــه وجماله فإنه قد حفظ فرجه حتى يأذن الله بالزواج، ولذا كان يصوم كثـــيراً، ويرتفع عن الزلل بقناعة ورضى، ومن شدة ورعه اختاروه إماماً للجامع ينهض في السحر ليتعبد، ثم يمضي إلى الجامع يؤم المصلين للفجر وعند كل صلاة.

ثانـــيهم أب رزقه الله بابنه الوحيد بعد طول صبر ورضا من جانبه، وحيـــن بلـــغ ابنه السابعة اجتهد في أن يحببه في الصلاة فأحبها وحرص علـــيها وبـــرع لسانه في ترديد آيات القرآن وحفظ الأحاديث فكان نموذجاً للولد الصالح محظياً بحب الله وكرمه ورعاية أبيه.

وثالـــثهم رجل صابر على بلواه برضا وحب وإن لم يمنعه ذلك من الألـــم الشـــديد علـــى زوجـــته الحبيبة الصالحة رفيقة عمره حيث أصابها المرض فأقعدها منذ سنوات فقام على خدمتها ليل نهار دون كلل وبترحيب

بالتعب، وبعفة جعلته لا يفكر في امرأة أخرى حتى وإن جاز له ذلك تحت مظلة الزواج.

ورابعهم رجل يسَّر له الله التوبة من أوسع أبوابها لشدة ندمه وألمه فتاب عن السرقة واتجه للعمل الشريف المضني متصدقاً بأكثر من نصف رزقه ضارباً المثل على نعمة الهداية خاشعاً في صلاته لا يترك مريضاً إلا عاده ولا فقيراً إلا ساعده، ولا مظلوماً إلا سانده ولا محروماً إلا أعانه، كان تجسيداً لرحمة الله بعباده حين يتوب عليهم.

انقسمت الشياطين إلى أربع مجموعات كل مجموعة تولت واحداً من هؤلاء الأربعة في توقيت واحد. قام الشاب أكثر من ثلثي الليل مصلياً متعبداً شاكراً حامداً ومستغفراً لا عن معصية ولكن زيادة في التقرب إلى الله، وقبل الفجر بساعة خرج من بيته متجهاً إلى الجامع ليؤم الناس للصلاة، كان الظلام محكماً والطرق وعرة ولكن القلب يقفز مستبقاً إلى بيت الله، وبينما هو يجتاز طريقاً تناثرت فيه بعض البيوت متفرقة دون انتظام سمع صوت امرأة ينبعث من أحد البيوت عالياً محتداً، وهنا اقترب أحد الشياطين وشد أذن الشاب ليلتقط بعض كلمات المرأة منصرفاً بتركيزه عن ذكر الله؟، كان بصوت المرأة لوعة وغضب ولا يخلو من جمال، اقترب من البيت أكثر، بانت الكلمات واتضحت معانيها، ماذا تقول هذه المرأة؟ يا لهول ما تقول!!

إنها تعاتب زوجها لأنه لا ينام معها، لقد أهملتني منذ عام وأنا جميلة الجميلات، لقد صبرت على مرضك ولا أقوى على الاستمرار، إنني أقاوم بشدة وأنت لا تحاول أن تفعل شيئاً، أكاد أنهار، إن صبري قد نفذ، واحتمالي قد تفتت واشتياقي للرجل أصبح بلا حدود، إنه اشتياق امرأة

صـــغيرة لا تنزل عنها عيناً أي رجل يراها لجمالها الفائق، افعل شيئاً وإلا طلقني حتى لا أخطئ.

اهـــتز قلـــب الشـــاب الذي اقترب أكثر من البيت، واهتز بدنه حين سمعها تقول لزوجها بغلظة، لماذا تريد أن تترك البيت الآن وقد تزينت لك وتعطـــرت وتجـــردت مـــن ملابسي لعلي أحرك مشاعرك وهاأنت تهرب للصلاة.

صـــعدت الدماء إلى رأس الشاب حارة فألهبت وجهه وتحركت إلى بعـــض أعضائه فأشقته بالخيال الجامح تصوراً لهذه المرأة الجميلة العارية الملتاعة التي تطارد زوجها بينما هو يهرب منها.

ولكـــن الله أراد أن يســـتر عليه فلم يره الزوج وهو يخرج من بيته منكســـراً مطَأطَـــأ الـــرأس بينما ظل الشاب متسمراً مكانه وقد غزته كل الشـــياطين بعنف في لحظة اتسمت بالتصعيد لكل شيء متقرباً من الذروة التـــي تجمـــع التركيز في شيء واحد، واحد فقط، وهو اللقاء بهذه المرأة، وأنـــزل أحد الشياطين الفكرة على رأسه ، يطرق الباب، تفتح هي يقول لها لقـــد ســـمع الله تحاورك مع زوجك ولقد أرسلني لك لألبي حاجتك حتى لا تخطئـــي، لقد جئت حماية لك، وهيأ له الشيطان ضمان استسلامها له سواء صدقت روايته، أم لم تصدق.

طرق الباب، فجاءه صوتها استفساراً عن الطارق، فأخبرها من هو، أمهلـــته بعـــض الوقـــت، لعلها ترتدي ملابسها، فتحت الباب، ويا لهول ما حـــدث، ارتمت في أحضانه، لم تترك فرصة للمناورات لم تتح للصراعات أن تـــنهض، هكـــذا تحقق الحلم دون مجهود، لقد جعل الشيطان كل شيء سهلاً، سحبته إلى الداخل، كان كل شيء معداً لممارسة الحب.

وفـــي اللحظـــة التـــي بدأ يهم بها ارتفع صوت الآذان يدعو الناس للنهوض من نومهم، ارتج بشدة توقفت كل أحاسيسه البشرية التوت روحه بألم حاد، وانغرز سكين بقلبه وكوت النيران جوفه، وتخيلها ثعباناً يريد أن يلــتف حول عنقه، في الوقت نفسه صرخت المرأة، أخذت تنتحب وتستغفر الله، كان ألمها لا يقل عن ألمه.

لقــد نزلت رحمة الله من السماء فتبعثرت الشياطين ثم انسحقت، أما المرأة فتوضأت وصلت وهي تقطر حزناً وندماً، أما هو فانطلق إلى الجامع وأعاد التوضأ، وصلى بالناس وهو يقطر حزناً وندماً.

كــاد يــتم حفــظ كــتاب الله وهو دون السابعة ما فاتته صلاة فجر مستيقظاً قبل أبيه وأمه، استوعب قلبه عشق الله، وهو في هذه السن المبكرة مثلما استوعب عقله أجَلُّ المعاني المتعلقة بالحكمة الإلهية، حامت الشياطين فــي هذه الليلة حول البيت تسترق السمع وتحاول أن تندس إلى عقل الأب بــالذات لصــلابة إيمانــه وتحمله المكاره وصبر على أي أذى، كان عبداً صبوراً شكوراً، ولو حلم مثل إبراهيم بأنه يذبح ابنه لذبحه تصديقاً للرؤيا.

في هذه الليلة بالذات كان ابنه يعاني مرضاً، ولكن الطفل أصر على مصــاحبة الأب لصلاة الفجر في الجامع، تشددت الأم في اعتراضها ولكن رق قلــب الأب لإلحاح ابنه ومطمئناً الأم أن الله سيحمي ابنها من كل سوء وكيف يضير الله طفلاً يسعى إليه ويبغي مرضاته.

وبينما كان يعبر بابنه الطريق والظلام مطبق انفلت الابن وسبق أباه بخطــوة فــي هذه اللحظة أقبلت سيارة ضخمة مستهدفة الابن تماماً ساقتها الشــياطين، وأصبح مؤكداً أنها ستدهس الطفل في غضون ثانيتين أو ثلاث وأن الســائق إذا رأى الطفل وحاول أن يتفاداه فلن يستطيع حيث لا تتوفر

الإمكانات في هذه السيارة أو أي سيارة للانحراف أو التوقف المفاجئ قبل مصـــادمة الطفـــل، هـــذا أمر مستحيل بكل الحسابات، تيقن الأب من هذه الحقـــيقة فهـــو الشـــاهد الوحيد على الأرض، وتلاحقت عشرات المشاعر والأفكـــار والأحداث في هذه الثواني المعدودة، فرغم أنها ثوان معدودة إلا أنها تعد زمناً، زمناً بحسابات خالق الزمن.

وثمـــة أحـــداث تقع وفق حسابات البشر ووفق إدراكهم لهذا الزمن، وثمة أحداث تقع وفق حسابات الخالق في نفس هذا الزمن، تتابعت مشاعر الأب من الهلع إلى التسليم بقضاء الله ثم اليقين بلطف الله ثم بعد اليأس من رحمة الله ثم بالدعاء، ومرت ثانية أو ثانيتان بحساب البشر.

وفي الثانية الثالثة هبطت رحمة الله من السماء استجابة لدعاء الأب وتكـــريماً له لإيمانه وتسليمه، وتكريماً للابن الصالح وانقلبت السيارة فجأة على جانبها دون أن تمس شعرة من الطفل حيث كان يرتفع في هذه الثانية الثالثة من الأرض إلى السماء تكبيرة الآذان الله أكبر.

وبلغت رحمة الله مداها حين خرج السائق وتابعه من السيارة المنقلبة سالمين ولم تفتهم جميعاً صلاة الفجر وهنا صعقت الشياطين منسحقين تماماً مطروديـــن مـــن هـــذه البلدة الطيبة. لا يقل صبر هذا الزوج علىَ مرض زوجـــته عن صبر زوجة أيوب على مرض زوجها، ليس صبر الكارهين ولكـــن صـــبر المؤمنين المحبين، كان يحب زوجته حباً جماً، ما ساءت له يومـــاً، تفانت في خدمته وأدخلت على نفسه السرور وأطاعته وحفظته في عرضه وماله قريباً أو بعيداً أحسنت رعاية وتربية أبنيه فشبَّا على الصلاح والتقوى، كانا شديدَي الخشوع والخشية ما أخلفا قط موعد صلاة حتى وإن كـــان بأحدهما مرض، وما خسر قط ثواب صلاة الجماعة حيث كان يؤمها

في كل صلاة. ومرضت الزوجة الحبيبة مرضاً لا شفاء منه، أقعدها تماماً فـــي الفــراش فقام على خدمتها دون كلل أو تعب أو تذمر بل كل الرضاء والتسليم بقضاء الله مخففاً عنها داعياً لها، وكانت تساعده في رعاية زوجته المريضـــة وخاصة أثناء غيابه في العمل شقيقة زوجته وكانت شابة جميلة عــذراء لــم يــتطرق إلى خيالها دنس قط وكانت في مثل صلاح شقيقتها المريضة. وفي الليلة التي هبطت فيها الشياطين للمدينة متحفزين مجتهدين نامــت الــزوجة بعمق غير معهود بينما أصاب الزوج أرق بفعل حرارة مفاجــئة داهمــت الجو فنهض يتوضأ ففوجئ بشقيقة زوجته تستحمم دون توقــع لعيــن تراها، في لحظة أو أقل اضطرب لديه كل شيء، اختلت كل توازنات جسده الفسيولوجية وكل توازناته النفسية وأصيب العقل بحالة من التوقف المفاجئ وهو توقف مفهوم حتى لا يضطر لأخذ قرار إما بالتراجع وإمـــا بالتقدم، لقد تخلص العقل من المسئولية وحل الصراعات التي نشبت بداخله بطريقة غير معروفة إلا في عالم السياسة وهي التوقف عن التفكير تماماً وبالتالي العجز عن اتخاذ أي قرار.

أمـــا هـــي فحين رأته فبدت وكأنها فوجئت فلم تدر ماذا تفعل، وهذا أيضاً شكل من أشكال التوقف عن الفعل، أو الرغبة اللاشعورية في التوقف عــن الفعــل سواء السلبي أم الإيجابي المفاجأة تصيب الإنسان بالشلل وقد يحمــل هذا الشلل دعوة للاستسلام، فتقدم نحوها وظلت هي مكانها مسدلة العينيــن، أخــذت الشـــياطين تدفعه من ظهره بعد أن ألهبت جسده، مثلما ســـمرتها الشياطين في مكانها بعد أن ألهبت جسدها. إنها فسيولوجية الجسد التي لا تعرف إلا الاستجابة الفورية حين يتوقف العقل عن توجيهها وحين كـــاد يلمسها ارتفع آذان الفجر من الأرض إلى السماء أن الله أكبر فانطلق

كصـــاروخ خارجـــاً من البيت ووصل إلى الجامع وهو في حالة يرثى لها فتوضـــأ وجـــثى علـــى الأرض مستجيراً مستنجداً برحمة الله، أما هي فقد انهارت تماماً، وأرادت أن تشعل النيران في جسدها لولا خشية الموت على كفـــر، توضـــأت وصلت وهي على يقين من رحمة الله، وحينئذ انسحقت الشياطين تماماً مطرودة من المدينة الصالحة.

كـــان قاطعـــاً للطريق ناهباً للأموال ثم اهتدى، والله يهدي من يشاء عـــاش حياة الزاهدين رغم ماله الوفير الذي أتاه من حلال، وبين يوم وليلة تعرض لخسارة كبيرة فقد كل أمواله فعاد فقيراً معدماً لا يقدر على شيء، وفـــي الليلة التي هبطت فيها الشياطين المدينة جاءه من يعده بمال كثير إن هـــو أعـــان قومـــاً مجرمين على اختراق الحدود محملين بتجارة محرمة مستعينين بقوته وخبرته، اهتز بشدة، نازعته نفسه، عذبه التمزق بين فقره المفاجـــئ رغم استقامته وبين مال كثير يأتيه من حرام بجهد يسير، سقطة العقـــل هنا في المقارنة بين نتائج الاستقامة وبين نتائج الانحراف، ذلك هو المـــنفذ الذي تريد الشياطين أن تخترق منه جدار إيمان هذا الرجل، يا أيها الـــرجل لقـــد افقرتك الاستقامة، وهذا مال وفير يجيئك دون جهد حتى وإن كـــان حراماً، خرج قبل الفجر بساعة حيث يلتقي بالشياطين الوسطاء بينه وبين المجرمين وبينما هو يمضي في طريقه ارتفع آذان الفجر من الأرض إلـــى السماء أن الله أكبر فأرتج بدنه بعنف وتوقف عن السير واستدار عقله صـــوب الاتجاه السليم مدركاً أن المال الحرام يجلب الشقاء ويكفي الإنسان أن يمتلك قوت يومه وأن ينام معافى آمناً، هذه هي السعادة الحقة.

عاد أدراجه وتوضأ وصلى مستعيذا بالله من الشيطان الرجيم.

وغادرت الشياطين المدينة قبل أن ينتهي الناس من صلاة الفجر.

رجل وامرأتان

الأشجار، كالقلوب تموت بعد طول صبر، تقاوم الجفاف حتى إذا لم يعـد أمـل فـي قطرة ماء أو قطرة حب تقرر الانسحاب.. والحب كالماء مصـدر حياة لا بديل عنه. والقلب المفعم بالحب كالشجرة المثمرة مصدر حياة لا بديل عنه. إذن هي حياة من حياة.. أما الموت فهو العدم ولا رجعة فـيه.. مـن مات مات ومن مات لا يعود فلا تورق شجرة بعد موتها، ولا ينـبض قلب بعد موته... والشجرة التي تموت تجف وتصير حطباً والقلب الذي يموت يجف ويصير حجراً... والحطب قاس ولا يملك إلا أن يشتعل، والحجارة أشد قسوة ولا تملك إلا أن تدمى... أي تسيل من قسوتها دماء.

ومـن عجب أن الماء والحب يأتيان من السماء رحمة بأهل الأرض فـإذا امتنعـت السماء حل الخراب.. ومثلما تتشقق القلوب عطشاً للحب، ويكـون الـتلهف المجنون للبديل حتى وإن كان ماء البحر، حتى وإن كان حباً بديلاً زائفاً فيزيد العطش حدة ويكون الضياع محققاً.

كان هو من طبقة اجتماعية متواضعة ولكنه كان طموحا.. كان فقيراً ولكنه كان مجتهداً.. كان ذكياً ولكن محدود الثقافة، أما هي فقد كانت تنتمي إلى طبقة أعلى فامتلكت المال والثقافة فضلاً عن ذكائها.

كـان صـديقاً لشقيقها فدفعه طموحه لأن يطلبها زوجة له رغبة في الارتقـاء اجتماعـياً. رضيت به زوجاً وأنفقت عليه حتى تخرج وأكسبته سـلوكيات الطبقات الراقية فأتقنها أما الذي يقدر عليه فهو تنظيم الشحنات

العاطفـية التـي يضخها قلبه للحياة والأحياء وكذا الاستغناء عن عواطف الآخرين واستجداءِ اهتمامهم. لم تستطع هي بنفوذها الطاغي أن تحوله إلى إنســان بارد وكالح. فشلت في أن تجعله يبدو محافظاً مترفّعاً. ظل بسيطاً دافـئاً يشـع حباً وتتفتح مسامه لتلقّي الحب، تفيض روحه بالمرح وتطفح نفسه بالسرور وتفترش الابتسامة وجهه، وحاول هو أن يغيرها إلى مذهبه ويستميلها إلى أسلوبه ويقنعها بفلسفته فاستعصت عليه.. ظلت على برودها وتحفظهـا وتـرفعها حتى معه وإن لم تنكر في داخلها أنها تحبه رغم عدم إعجابها به. ولأنه كان شَرِها في الحب فإنه كان بالتالي ملِحّاً في ممارسته، ولكـنها كانـت معدومـة الإثارة والاستثارة ولتمسكها بطقوس في التمهيد والتحضـير ثـم التمكيـن ثم التطهر وكأنها تزيل دنساً ففقد الرجل رغبته وتعفف مؤقتاً رغم تزايد عطشه. ولكن الذي أشقاه أكثر هو نقدها الدائم له والـذي كان يحمل أحياناً دفعات خفيةً من السخرية ترقى أحياناً إلى درجة من التهكم شبهِ المعلن الذي يرتفع إلى أقصى مدى في أحيان قليلة إلى حد التجريح والإهانة.

وكـان يـبذل مجهوداً خارقاً ليكون مثالياً كما تريده أن يكون سلوكاً ومظهـراً وبـلا روح.. ولكـن روحه كانت تأبى ولذا كان يبدو كالتلميذ الخائب بسبب ضعف قدراته مع قسوة المدرسة وبذلك يخر صريعاً يهزمه الصـراع مـا بين إرضائها وتحاشي غضبها وتفادي تجريحها وما بين أن تكون نفسه على طبيعتها بسيطاً مرحاً وعاشقاً.

وحيـن انسدت الطرق تباعداً.. فانصرفت هي إلى الرفيع من الفنون تذوقـاً وإبداعـاً وانصرف هو إلى أصدقائه الذين يجيدون كيف يضحكون ويلهـون ويعبـثون أحياناً تحت تأثير كميات متوازنة من الخمر لا تفقدهم

صـــوابهم وإنما فقط تزيل الغمام وتلطف الجو وتنعش الهواء وتأتي بالقمر في غير مواعيده. ولكنه كان يحب زوجته الباردة ولم يفكر قط في خيانتها مـــثلما كانـــت تحـــب زوجها (الأهوج) كما كانت تصفه ولم تفكر قط في خيانته. واسترد بعض قوته المهدرة وكرامته المبعثرة بعد أن فتح الله عليه بمال وفير جزاء اجتهاد عرف عنه وإخلاص اشتهر به، مما أكسبه شجاعة أن يـــترك البيت لمرات غير قليلة ولمدد غير قصيرة إذا تعدت هي الحدود اللائقة في التعامل مع الزوج..

وهـــدد أكثر من مرة أنه قد لا يعود أبداً وحمل هذا التهديد معنى أنه يفكر في الخلاص ولكنه كان دائماً يعقب هذا التهديد بقوله إنه مازال يحبها رغـــم عدم صلاحيتها كزوجة بمقاييسه هو. ولكن طول الحرمان جعل قلبه يتشـــقق فأفقده صبره وأفقده الأمل في أن ثمة إصلاحاً قد يلوح في الأفق. وكالعطشـــان الذي لا يجد ماء فيرفع رأسه ويفتح فمه في اتجاه السماء لعل قطـــرة مـــاء عشـــوائية تهـــبط إلى فمه فإن صاحبنا العطشان للحب سمح بتســـريب بعض المشاعر الدافئة إلى قلبه من بعض المحيطين به، وكانت إحداهن مدربة وذات خبرة بالرجال العطشى فأضافت إلى ماء الحب خمراً لعبـــت برأســـه وجعلته يرى الجنة الموعودة في متناول عينيه ولكنه غير مسموح له بدخولها إلا بصحبة هذه المرأة والتي هي على النقيض تماماً من زوجـــته. خـــبرتها جعلتها تعرف تماماً احتياجاته فتباسطت وابتذلت، غنت وهـــزرت ورقصت، أفعمته حباً وأشبعته جنساً ولم تجعل نظاماً لأي شيء ولم تسمح لمنطق أن يسود أو أصولاً تفرض نفسها وتحد من مزاجيهما.

غـــرق صاحبنا تماماً في العسل ولم يشأ محاولة النجاة بل تزوجها.. كان سعيداً، يعيش الحياة التي يحبها وتوافق هواه ولكنه لم يتوقف عن حب

المـــرأة الأخرى.. زوجته الأولى.. الحب الأول.. وكان على يقين أنها هي أيضاً تحبه بالرغم من إساءة معاملته.

وتكـــتم أمـــر زواجه الثاني.. ولكن لا أسرار تظل مخفية إلى الأبد، الأســـرار جعلـــت ليـــتم إفشاؤها ويعم انتشارها. والذي لم يكن سراً يكون انتشاره محدوداً، عرفت زوجته الأولى بأمر زواجه الثاني فلم تبد انزعاجاً تمســـكاً بمـــبدأ المحافظـــة والترفع. وطلبت الطلاق.. ولأنه كان قد فهمها وعـــرف مفاتـــيح شخصـــيتها فإنـــه وافق على الطلاق فتراجعت وقبلت الاســـتمرار مشترطة العدل فعدل معطياً الأولى قلبه وعقله ومعطياً الثانية جسده وروحه، إلا أن زوجته الأولى غلبها كبرياؤها فأهملته فهجرها نهائياً وعاش مع الزوجة الثانية، ورغم حلاوة العسل مع الثانية فإنه كان يحن إلى الحـــنظل مـــع الأولى.. ورغم السرور مع الثانية فإنه كان يحن إلى بعض النكد مع الأولى فكان يزورها من حين لآخر ولكنها كانت لا تسمح له بأن يلمســـها جالسة فوق عرشها وهو في وضع أدنى منها أما حين يذهب إلى الثانـــية فكانت تجلس تحت قدميه فيشعر أنه ملك متوج، كان يحتاج الاثنين معاً، كان يستعذب مشاعره عند كل منهما رغم أنها كانت متناقضة.. أحب المشـــاعر التي يناقض بعضها بعضاً أحب أن يكون ملكاً في أوقات، ملكاً متوجاً تتفانى امرأة في الترحيب به وتدليله وأحب أن يكون عبداً في أوقات أخرى، عبداً شبه ذليل تتفنن امرأة في رفضه واحتقاره.. وأيضاً كانت كل امـــرأة منهما تريده بطريقتها الخاصة كان يلبي احتياجاً ما لدى كل امرأة.. الأولى تشعر معه بتفوقها.. هي أعلى منه.. هي التي صنعته.. كان يرضي غرورها ويشبع كبرياءها ويغذي ساديتها. أما الثانية فكانت تشعر أنها أدنى مـــنه، كانت تحتاج إلى أن تشعر أنها خادمة لرجل واحد تراه أعلى منها..

ســيدَها.. مليكَها.. وليٌّ نعمتها كان يرضى عبوديتها ويشبع دونيتها ويغذي مازوخيتها.

ومــن عجــب أنــه كان يتقمص الدور تماماً عند كل منهما. وذلك بالــرغم مــن رفضه في البداية لدوره مع الزوجة الأولى.. إذ كان يلبس جلباباً غير جلبابه.. ولكنه حين تزوج بالثانية فإنه أحب الجلبابين.. الجلباب مع الثانية هو جلبابه الطبيعي، أما جلبابه مع الأولى فهو الجلباب الذي كان يطمح إليه ولكنه ضاق به مثلما ضاقت صاحبة الجلباب به. فإذا ذهب إلى الأولــى سمع الموسيقى الكلاسيك وأمسك كتاباً في الفلسفة واستخدم بكفاءة أدوات الطعــام ولــم يقــابل زواره بملابس الفراش وكان يستحم في اليوم مرتين.

أمــا حين يذهب إلى الثانية فكان يميل إلى الأغاني الشعبية الهابطة والنكات ذات المعاني الجنسية المباشرة ويبعد عنه الصحف متذمراً ويلتهم الطعــام بأصابع غير نظيفة وربما يقابل زواره في حجرة نومه، ولا مانع عــنده أن تلاطــف زوجته الثانية أحد أصدقائه بينما كان يَغَار غيرة شديدة على زوجته الأولى ويرفض أن تقابل أصدقاءه أو أن تتباسط مع أي رجل. ومرضــت زوجــته الأولــى المرض الأخير الذي لم يمهلها، فجاء موتها مفاجــئاً له فانهــار تماماً.. بكي بحرقة.. وقبل قدميها.. وسقط مغشياً عليه عــند قــبرها، وأصــيب بحزن شديد طال شهوراً استدعى زيارة الطبيب النفســي والــذي أوضح له أنه في الحقيقة فقد أمه فشعر بالترنح، فقد من كانــت تمثل له الضمير الذي يجعله يعف ويمتنع عن الخطأ والذلل فشعر بالضــياع، فقــد الرقيــب الــذي كان يحفظ له النظام والأصول والقواعد والنظافة فشعر بتهديد من فوضى متوقعة تشمل كل حياته.. كانت زوجتك

الأولى تمثل الجانب الانضباطي في حياتك وهو جانب مثالي كنت تحن إليه ولم تقدر عليه فأصابك الإحباط ولكنك لم تتخل عن حُلْمك..

لم تسلم بفشلك.. استمرارُك معها كان دليلاً على أنك كنت تؤمن بها، واستمرارُها معك رغم زواجك الثاني كان دليلاً على أنها كانت تؤمن بك.. كانـــت تـــرى الجانب المضيء في داخلك فصبرت عليك لعلها تصلح من شأنك ولكن القدر لم يمهلها أو لعلها أصابها اليأس منك فآثرت أن ترحل.

عـــاد إلـــى العســـل مرة أخرى ليغرق فيه أكثر وأكثر، لهو ومرح وجـــنس وفوضـــى وابتذال وطرب رخيص وهوايات وألعاب جُعلت فقط للأغبـــياء. وتـــربص بـــه القدر مرة ثانية فأصيبت الزوجة الثانية بمرض خطـــير أجهز عليها في خلال عام كان قد تهيأ فيه لمستقبل موتها.. وعاد إلـــى الطبيـــب النفسي وهو في حزن شديد ولكن ضياع أقل.. قال الطبيب النفسي أنت فقدت هذه المرة الزوجة التي تجسد الجزء السائد في شخصيتك أي أنـــت على حقيقتها.. أنت بدون رتوش.. أنت بدون مجهود.. أنت كما أنت وليس أنت كما ينبغي أن تكون أو كما تتمنى أن تكون اختيارك الثاني جاء من نفس طينتك فرقصت روحك. إن روحك هي التي تعاني الفقد الآن ولـــيس قلبك.. إن جسدك هو الذي يعاني الفقد وليس عقلك.. أنت لا تترنح هذه المرة لأنك أنت كنت السند لها لم تكن هي زاوية ارتكاز ولكنها كانت مســـليتك التـــي ترقص على خشبة مسرح حياتك وكنت تشاركها الرقص وأنـــت ثمـــل حـــتى تنسى فشلك مع الأولى. ولذا فأنت ضعت حين ماتت زوجتك الأولى أما مع موت زوجتك الثانية فأنت حزين بلا ضياع.

عاد إلى بيته .. رفع صورها حتى يخفف من لوعة الحزن .. عانى وحدة شديدة .. لم يغادر بيته إلا بعد أربعين يوماً بحثاً عن زوجة ثالثة.

الدفء

علـــى دَفَعـــات متتالية تدفق الهواء البارد واحتل كل جنبات المدينة تســـرب إلـــى البيوت مخترقاً كل الحواجز، متحدياً كل وسائل التدفئة التي باتـــت عاجـــزة أمام صقيع لم تعهده المدينة من قبل وفرض شعوراً عاماً بالعدالة، حيث لم تجد الملابس الوثيرة والأغطية السخية في درئه، تساوي الذين يملكون والذين لا يملكون.

اصـــطكت الأســـنان، وارتعشت الأبدان وارتجفت القلوب، وتجمدت الأطراف وتصلبت الوجوه، وظن البعض أن يوم الفصل قد حل، إذا لا قبل لأحـــد بمواجهة هذه الموجة العاتية، أسرع من في الشارع إلى بيته وأحكم إغـــلاق البـــيوت على أهلها دون أن يجرؤ أحد على مغادرتها مهما كانت الأســـباب، إلا أن الحـــال ظلـــت على ما هي عليه وبات من الصعب أن ينحبس الناس خلف الأبواب، فتسلل بعضهم لقضاء الحاجات الملحة.

رجل عجوز وزوجته

لأنها كانت تصغره بعشر سنوات، فإنها كانت أكثر تماسكاً منه، أما هو فقد كان في كرب شديد، نظرت في عينيه فتصورت أنه سيموت منها، أصـــابها هلـــع.. أحضـــرت كل ما هو مدفئ من ملابسه. أدخلته الفراش وأحاطته بذراعيها.. رفعت الغطاء حتى غطي وجهيهما..

قـــال لهـــا بصعوبة: لم تعان البلاد مثل هذا البرد منذ خمسين عاماً، كنت في الخامسة والعشرين..

أمنت على كلامه قائلة: وفي هذا العام تزوجنا، ابتسم دون أن تراه، أمـــا هـــي فاستطردت : لم تكن تخشى برداً وإن اشتد ولم تكن تضجر من الحر، وإن قسا، كنت قوياً أما الآن فقد كبرت.

عـــاود الابتســـامة من تحرك الغطاء وقال بصوت أقل ارتعاشاً: أما أنت فقد كان البرد يعتصرك رغم صغرك.

شـــعرت بابتسامتها وهي تقول بصوت مرح تحرر نسبياً من الخوف كنت تدفئني بذراعيك وهأنذا أرد لك الجميل.

قـــال وكأنما يغيظها أو يستفزها بحب: لكن ذراعيك فقط لا تدفعان برداً، أحيطيني بجسدك كله.

قالـــت وهي ترد غيظه بغيظ: يا رجل لقد انهدّ حيلك ولم تعد تقوى على حمل نملة.

قال بتحد: جربيني.. وسترين إنني قادر على حمل بقرة.

قالـــت بغضب: يا رجل لقد كبرت ومازالت ألفاظك سيئة وجارحة. وإذا كنت أنا بقرة فأنت ثور.

قـــال وهـــو يـــزيد الموقـــف اشتعالاً بعث بعض الدفء خاصة في الأطراف: لا مانع عندي أن أكون ثوراً إذا كانت البقرة ستدفئني.

قالـــت ومـــازال الغضب شبه المصطنع يلون صوتها: إذا لم تسكت سأتركك تنام وحدك.

قال باستعطاف يحثها على الشفقة: وتتركيني أموت وحيداً.

هزتها كلماته وتذكرت أنها رأت الموت في عينيه من شدة البرد.

فأحكمت ذراعيها حوله فقبل جبينها. فالتصقت به فحمى الفراش من شدة الدفء الذي عم البيت كله وناما بعمق شديد.

رجل وامرأة

أوجعها من شدة قلقها على زوجها الذي لم يعد بعد إلى بيته رغم أنه غـــادر عمله منذ ساعتين.. أما هو فقد كان يواجه البرد القارس بكل جسده وهو يمضي في الشوارع التي أقفرت من الناس.

وهربـــت منها كل السيارات، وأصبحت المدينة تبدو وكأنها مهجورة أنهكه البرد ووقع في الطريق أكثر من مرة وجرحت يداه وتاه عقله يبحث عـــن أي وسيلة تحمله إلى بيته، بينما كان هو في هذه الحالة السيئة كانت زوجته في حال أسوأ منه من شدة البرد ومن شدة القلق، وخطر لها أنه قد يمـــوت فـــي الطريق، ففكرت أن تخرج للبحث عنه، لكن أين تجده، ظلت تروح وتجيء وتقرأ كل الأدعية وفي النهاية لم تستطع فخرجت إلى عرض الطريق.

وإذا بـــه يأتـــي من بعيد وهو يترنح أخذت يده وحطتها على كتفها وأحاطت خصره بذراعيها وأدخلته البيت.

وفـــي الفراش دثرته بأكثر من غطاء، وأحاطت أطرافه بزجاجات مليـــئة بالماء الساخن وأطعمته حساء ساخناً، وجاءت بطفليه فاندسا جانبه تحت الغطاء ثم انضمت إليهم فالتصقت أجسامهم الأربعة.

وأحاط كل منهم الآخر بذراعه فحمي الفراش بالدفء الذي امتد إلى بقية البيت وناموا جميعاً بعمق.

طفلان

كان الذعر بادياً على وجوه الناس وهم يُهْرَعون إلى بيوتهم خوفاً من تســـاقط المطر بعد هذه الهجمة الشرسة من البرد. ولم يلتفت أحد منهم إلى طفليـــن دون العاشـــرة، وهما يندفعان في غير اتجاه معين، وأخيراً استقرّا

أمـــام عتـــبة أحد البيوت، ولم يقويا على الوقوف من شدة الهواء الذي كان يدفعهما دفعاً فاستلقيا على الأرض حتى لا يواجهاه بجسديهما النحيلين..

بينما كان أحد السكان يندفع إلى الداخل اصطدم بالطفلين فوقع على الأرض، نهـض وهـو يسبهما وبصق عليهما.. وهنا تبادل الطفلان أول كلمات تعبر عن الألم والحزن وهما ينتفضان ولا شيء يحمي بدنيهما شبه العارييـن، وكانا منذ وقت قصير وقبل المجيء المفاجئ للبرد متخاصمين، وعبر بهما ساكن آخر ونظر متعجباً ونصف مشفق، لكنه أسرع إلى شقته، ثم تبعته امرأة تحمل طفلاً وهي تولول خوفاً على ابنها، وتوقفت لحظة أمام الطفلين اللذين يفترشان الأرض ثم اندفعت إلى شقتها وهي مازالت تصرخ.

لـم يدر الطفلان ماذا يفعلان والبرد يقرص كل جزء من جسديهما، فاحتضـن بعضُـهما الـبعض، فأصبحا وكأنهما جسد واحد، قال أحدهما للآخـر: أنـا أحبك يا أخي، سامحني ، رد عليه الآخر قائلاً: وأنا أحبك يا أخي سامحني، ثم ناما بعمق نوماً لذيذاً.

رجل وحيد

فاجأه البرد بينما هو يمشى بلا هدف وأي هدف لرجل يعيش وحيداً بعـد أن ماتت زوجته ورحل أبناؤه. ورغم اللسعات النارية للهواء البارد، إلا أنه تردد في العودة إلى البيت، ولماذا يعود؟

فظـل يمشـي في الاتجاه المعاكس للبيت. وكلما مضى الوقت زاد توحـش الـبرد، وصـار كأنياب حيوان مفترس انغرست في جميع أنحاء جسـده، وكلما اشتد عليه الألم أمعن في الابتعاد عن بيته، وكأنما كان يلجأ إلى برد الشارع تفادياً لبرد أكثَر شدةً في البيت. كان يمشي على مهل بينما الناس يجرون، ومن يلحظه منهم كان يعجب من أمره ويظنه مجنوناً، بينما

هـو فـي ذهوله توقفت بجواره سيارة وشدته يد قوية على المقعد الخلفي، ووجد نفسه يجلس بجوار رجل مازال يتمتع بنضارة الشباب وسيدة لا تقل عنه حيوية تبدو أصغر منه سناً.

توقفـت السـيارة أمام بيت كبير كالقصر، أسنداه حتى دخل معهما البيت وانحط على أول كرسي قابله. أتيا له بملابس ذات كفاءة في مقاومة الـبرد، وشـرب شاياً ساخناً، وجلس أمام المدفأة، إلا أنه لم يشعر بأنه في حال أفضل إلا حينما جاءه الرجل ومعه السيدة وجلسا معه.

وعـرف أنهمـا زوجان، ثم جاء الأطفال ليصافحوه، ثم جلس معهم على العشاء، ثم أخذوا يضاحكونه ويطمئنونه.

عجـب من أمرهم كيف يحملون رجلاً غريباً من الشارع إلى داخل بيتهم ليجلس بينهم..

سألتهم مباشرة فأجابته السيدة: كنت على وشك الموت من البرد.

سألهم: وماذا يعنيكم من أمري؟

أجاب الرجل هذه المرة : شعرنا وكأنك والدنا.

عاد فسأله : ألم تخش أن أكون مجرماً؟

ردت السـيدة على الفور: تبدو على وجهك الطيبة، وهنا شعر بتيار مـن الـدفء يسري في عروقه مبتدئاً من قلبه ومتجهاً إلى كل مكان في جسده، ونام في استضافتهم بعمق وكانت الليلة من أحلى ليالي عمره.

زوجة البواب

هـي حجـرة مساحتها متران، ننزل إليها بعشرة سلالم أسفل عمارة ضـخمة لهـا بواب اقترب من الأربعين هو وزوجته وأربعة من الأطفال بنتان وولدان.

منافذ الحجرة غير محكمة الإغلاق، سمحت بمزيد من الهواء البارد أن يدخلهـــا في هذه الليلة الشنعاء.. أيقظه البرد الغازي ولم يدر ماذا يفعل وهـــم لا يملكون إلا غطاء واحداً، آثر أن ينسحب من تحت الفراش ليترك مساحة أكبر تحيط بأطفاله وزوجته أطمأنَّ إلى أن الفراش يغطي أجسامهم كلها، فيما عدا الوجوه.

استند جالساً إلى الحائط في أحد الأركان، نام بعد أن أمعن النظر إلى أســـرته الـــنائمة وملأه حنان أدفأ وجدانه، صحا على حركة بجانبه فرأى زوجـــته وهـــي تغطـــيه بجلباب بينما أحاطت أطفالها بكل الغطاء. حملت نظراته إليها حناناً جارفاً فسعت إلى جواره وبادرت هي باحتضانه.

زوجة الأخ

لا شـــيء يدعـــو للاندهـــاش فـــي هذا الكون الرحيب إلا الإنسان، فالطبـــيعة لهـــا قوانيـــنها التي تحكمها وبالتالي فإذا كان هناك خروج على القـــانون فـــإن هناك تفسيراً مادياً لهذا الخروج فأي خرق للنظام المادي له أسبابه المنطقية أي هناك قانون يفسر الخروج على القانون.

إلا أنـــه تظـــل هـــناك حقـــائق ثابتة، قانون أساسي، نظام لا يتغير والقانون في هذه الحالة صنعه الله بتفصيلاته وجعله في يده هو وحده يدير به حركة الكون وبالتالي فنحن نندهش بل لا نصدق أي خرق لهذه القوانين الثابـــتة كحـــركة اللـــيل والنهار وشروق الشمس وغروبها، هذه قوانين لا تعطـــل ولا تخـــتلف ولا توجد أسباب لاختلافها، فنندهش أولا نصدق أن شمس اليوم أشرقت من حيث غربت بالأمس، ونندهش ولا نصدق أن ليلا أعقبه ليل وتخلّف النهار عن مجيئه.

أمـــا القوانيـــن التي تحكم السلوك الإنساني فقد تركت تماماً للحركة الذاتـــية للإنســـان أي لاختياره المبني على إرادته، فلا تسيير وإنما تخيير، وإذا صـــدر عـــن إنســـان ما سلوك شاذ أي خارج نطاق ما نتوقعه أو ما نعـــرفه عـــن طبيعة البشر فإن هذا الشذوذ تكون له أسبابه التي أدت إليه وتعـــددت الـــنظريات، فثمة أسباب نرجعها إلى عهد بعيد في الطفولة التي تتعلق بالتربية والتنشئة والملابسات التي أحاطت بهذه المرحلة المبكرة من العمـــر والتـــي جعلـــت الأحداث تترك آثاراً لا تنمحي أدت إلى شذوذ في مرحلة تالية تحت ضغوط معينة، وثمة أسباب أخرى تتعلق بمتغيرات بيئية

ضاغطة وثمة مستوى آخر من الأسباب مرتبط بتغيرات بيولوجية تحدث من داخل الجسم ولأسباب قد تكون وراثية، وفي هذه الحالة قد نسمي هذا الخرق للقانون الذي أدى إلى هذا السلوك الشاذ مرضاً ولا حرج حين يمرض الإنسان، أي لا تندهشْ ، فالإنسان لا يكون طبيعياً إلا في الأحوال الطبيعية، وطبيعي معناها أنه ملتزم، ولها معنى آخر وهو أننا نستطيع أن نتنبأ ونتوقع سلوكه وفق خريطة إنسانية عامة وخريطة إنسانية خاصة : بيئته ومجتمعه وثقافته وظروفه الشخصية في الماضي والحاضر.

وإذا لم نجد سبباً ظاهراً فقد يكون باطناً وإذا لم نستطع أن نعثر على هذا السبب الباطن، فهذا ليس معناه أنه غير موجود وإنما نحن الذين لم نبحث بالقدر الكافي وأن هذا السبب مخفي في الأعماق بحيث لا يستطيع أحد أن يعثر عليه بل الإنسان ذاته صاحب المشكلة لا يستطيع أن يراه ويدركه، أي وجعلنا لكل شيء سبباً ولهذا يجب ألا نندهش.

نحن إذن إذا اندهشنا فهذا معناه أننا لا نريد أن نصدق، لا نريد أن نصدق أن هذا السلوك صادر عن إنسان سوي، ولهذا فنحن نصرخ ونقول هذا مجنون.. مجنون، وكلمة مجنون معناها أننا نرفض أي تفسيرات وأي مبررات ، لا نقبل إلا تفسيراً وهو التغير المادي الذي يحدث في مخ الإنسان إصابة مًا جعلته غير بشري، غير إنساني، أي أن من يملك مخاً طبيعياً فليس له الحق أن يسلك سلوكاً غير طبيعي، ولهذا يجتهد الإنسان بشدة في اتجاه العثور على الأسباب الخِلْقية والتكوينية والتشويهية التي تفسر السلوك غير الطبيعي للإنسان أو تلك الأسباب الخارجية التي تُحْدِث تأثيرات مادية غير طبيعية في مخ الإنسان. إذن نحن نتعلق بالأسباب المادية وذلك لأنها تكون خارجة عن نطاق إرادة الإنسان تماماً ونرفض

الأسباب الاجتماعية أو الأسباب النفسية. لقد طالت المقدمة لأن ما هو قادم مفزع، كصاعقة أو كزلزال طالت المقدمة لنتهيأ لاستقبال حدث خارق عن نطـــاق الطبيعة البشرية، وهناك إيحاء صريح في المقدمة يوحي بأن أسباباً عضـــوية وراء الســـلوك الشاذ، وحتى إذا كانت هذه الأسباب المادية غير واضحة الآن فإننا سوف نكتشفها في المستقبل، المقدمة توحي بأن ما حدث لا يعبر عن الطبيعة البشرية بأي حال، لا يفعل ذلك إلا مريض.

وبعد طول انتظار نقول أن الحدث ببساطة هو أن رجلاً أحب زوجة شـــقيقه فدفعها إلى الطلاق منه وتزوجها، أو أن سيدة أغرت شقيق زوجها وأقامـــت معـــه علاقة وأقنعته بالزواج فطلقت من زوجها وتزوجت شقيق الزوج.

سينقسم الناس إلى قسمين بعد قراءة هذه السطور السابقة التي تحكي القصـــة: قســـم ســـينزعج بشدة ويرفع صوته قائلاً هذا غير معقول، أنا لا أصـــدق، هـــذا رجل مجنون وهذه إنسانة مريضة، أعوذ بالله من شر يفسد حياة البشر، هذا فعل المرض، أو فعل الشيطان.

أما القسم الآخر من البشر فسيهز الأكتاف ولن يبدو عليه أي اندهاش وسيقول ببساطة إن لم يكن بفتور: هذه هي طبيعة البشر، الخيانة جزء من النسيج البشري، هذه حكاية طبيعية تكررت وستتكرر عدداً غير محدود من المـــرات وهناك ما هو أفزع منها. إذن هناك نوعان من الناس: نوع حسن الظـــن بالطبيعة الإنسانية، ونوع آخر سيئ الظن بالطبيعة الإنسانية، النوع الأول يـــرجع الظواهر غير الطبيعية إلى فعل الشيطان أو المرض والنوع الثاني يرى أنه ليس من خرق لقانون بشري في أي فعل شاذ، فالشذوذ هو أحد أوجه الطبيعة البشرية.

الأســرة شديدة الثراء، وعميد الأسرة وربها يملك ذكاء وجبروتاً ولم يرث كل الأبناء كل صفات الأب إلا الابن الأكبر، ولذا اختاره نائباً للرئيس، والمؤسسة التجارية ضخمة استوعبت كل جهد الأشقاء وعددهم أربعة مثلهم مــن الشــقيقات، المــاء واحــد والصحن واحد والسكن واحد، مترابطون مــتحابون مخلصون لله وللأسرة والعمل، وبقدر ما كان الأخ الأكبر يملك مــن قــوة وشجاعة كان الأخ الأصغر يملك رومانسية وشاعرية، ولكن لم يكــن يعــوزه الذكاء في إدارة حركة المال، وكان الأخ الأكبر أول الذين تــزوجوا وبقدر ما يملك بقدر ما امتلكت عروسه من سمات أهمها الجمال الفائق والذكاء الأنثوي الناعم والإرادة الفولاذية والطموح اللامتناهي.

وأي امــرأة تنضم لهذه الأسرة كانت ستقنع بهذا المال الوفير وهذه المكانــة الاجتماعــية المرموقة فليس ما هو أعلى من ذلك تطمح إليه أي امرأة، وهكذا كانت فعلاً الزوجتان الأخريان للشقيق الثاني والشقيق الثالث، فقــد قنعــتا بالحياة الرغدة الهادئة دون منافسة تفسد المذاق أو طموح يقلق الخاطر، إلا زوجة الشقيق الأكبر فكانت تريد العالم كله بين يديها، وكانت تثق بقدراتها الذهنية والأنثوية وبخبراتها ، ولم يقنعها زوجها فقد كان نمطياً تقلــيدياً محافظاً ونسخة مكررة من أبيه وأدهشه الشقيق الأصغر الذي كان أكــثر وسامة وأكثر رقة وأشد ذكاء وأكثر تحرراً وانطلاقاً ومواكبة للجيل الجديــد، الجــيل الذي يفكر في البلايين وليس الملايين، ولذا كانت تتحدث أكــثر مــع الشــقيق الأصــغر حيــث تشاركا في نفس الأحلام والميول والاهتمامات، ولم تلق أفكارهما تشجيعاً بل اعتراضاً وسخرية.

وتحــت مظلة الرومانسية حدث تقارب من نوع آخر، تقارب يمليه هوى غير منضبط إذ لا يملك ضبط هواه.

كل شيء يمكن ضبطه ومقاومته وتقويمه وتحريكه إرادياً إلا الهوى، وقديمـــاً قـــالوا لا عـــلاج للهـــوى، بل هو جانح مارق، والهوى هو الميل الجـــارف والـــتعلق الزائد ومتعة المرافقة ولذة المصاحبة، وإذا وقع الهوى اتبعه ما هو أعلى درجة وأشد استبداداً وهو الحب، والحب إذا نشأ في ظل الحـــرمان والمســـتحيل تحول إلى عشق والعشق هو ما مات الإنسان دونه وفـــي ســـبيله ووقـــع المحظور وهو ليس بمحظور في ظل هذه المشاعر الجارفة كشلال. وبذكاء المرأة الخارق امتنعت عنه بل وأفهمته أنها ستترك هذه الأسرة لأنها لا يمكن أن تكون لرجلين في وقت واحد، رجلين شقيقين، فقد توازنه تماماً، بل كاد يفقد عقله، ولم يتصور الحياة بدونها، ولأول مرة تصـــورها زوجـــة له، وبحسه الاستثماري تصور كم سيعلو للقمة برفقتها، ولذا قرر أن تكون له، ولكن كيف؟

كيف هذه تحتاج إلى وقفة، وقفة طويلة لنعرف مسار التحولات التي جـــرت داخلـــه وأوصـــلته إلى أن يطلق زوجة شقيقة ليتزوجها، هذه هي فرصتنا لنتعرف على أعماق نفس بشرية أتت بسلوك شاذ، ما الذي حركه في هذا الاتجاه، هل كان يملك الاستعداد العام للسلوك الشاذ والذي ظهر في الوقت المناسب. وفي ظل ظروف داعبت هذا الاستعداد وأثارته وحركته، هل هو الهوى المباغت أم الاستعداد الكامن. والمحور الأساسي الذي نركز علـــيه فـــي هـــذه الحالة هو تاريخ علاقته بشقيقه الأكبر، هل كان يحبه أم يكرهه؟

أم مزيج من الحب والكراهية؟ هل كان يغار منه أم يحقد عليه.

هل كان يكره السلطة الوالدية في شخص أخيه الأكبر الذي حل محل أبيه في إدارة شئون العمل؟

هـل كـان يشـعر أنـه هو الأجدر والأفضل وأنه الأحق بالإدارة والسـيطرة وأن أخاه الأكبر يحتل هذه المكانة لمجرد أنه الأكبر رغم عدم جدارتـه وأحقيـته؟ هل كان يكره سطوة أخيه الأكبر واستبداده؟ هل هي مشـاعر الكراهية نحو الأب طرحها على أخيه الأكبر نائب أبيه؟ هل كان يشـعر أن أخاه الأكبر قد أخذ المزايا وأن أباه فضله على بقية أبنائه بدون وجـه حق؟ هل كان يشعر أن أخاه الأكبر أناني ومغرور ولا يستحق هذه الـزوجة الـرائعة؟ هل كان يراها رائعة أم لأنه يريد أن يسرقها من أخيه الأكبر؟

يـريد أن يحـرمه منها، يريد أن يدمر حياته، هل كان لديه كل هذا الكم من المشاعر العدوانية تجاه شقيقه، هل كان يتمنى لا شعورياً أن يذبح شقيقه؟ هل تتأصل العداوة والمشاعر السلبية منذ مرحلة مبكرة من العمر ؟

هـل إذا حل شقيق محل أبيه كرهه بقية الأشقاء؟ هل إذا كان شقيق محـل تفضـيل الأب كرهه بقية الأشقاء؟ هل الغيرة هي القاعدة الأساسية للمشـاعر بين الأشقاء؟ أم أن هذا تكوين الأخ الأصغر الذي يتسم بالأنانية مـن فرط التدليل الذي حظي به؟ أم أنه صراع تاريخي وتقليدي بين الأخ وأخيه منذ بدء الخليقة وإلى أن تقوم الساعة؟

بقلـب بارد، رتب الخطة مع عشيقته التي هي زوجة شقيقه ، طلبت الطـلاق، أصـرت عليه، اندهش الجميع إذ لم يكن بين الزوجين ما ينبئ باحـتمال وقوع مثل هذا الحدث الجلل وما من امرأة تصر إصراراً حقيقياً علـيه وخاصـة إذا كـان هـناك رجل آخر، تم الطلاق، بعد انتهاء العدة تـزوجها. لم تمر به لحظة ألم، لم تمر به لحظة تردد، كانت عشيقته تقف وراءه بـل تعـيش داخلـه تراقب أفكاره وتتسمع على مشاعره وتقويه إذا

شعرت ثمة بضعف بدأ ينتابه، كانت تغرقه في العسل وتحرمه من تذوقه، وتضع الثمرة بين أسنانه وتمنعه أن يقضمها. تزوجها وسافر ، وعاد ليخبر أسـرته فخـروا صـرعى وطغـى عدم التصديق على أي شعور بالألم، اضطربوا اضطراباً شديداً هددوه بالقتل، ثم تراجعوا وهددوه بالحرمان من الـثروة، ثـم تـراجعوا وهـددوه بالفصل من العمل، ثم تراجعوا وهددوه بالمقاطعة.

وتمـر الأيـام ويتقـبل الناس ما لم يتصوروا تقبله في وقت سابق، ويسـتمر العمـل رغم المقاطعة الإنسانية وظلت الدهشة تعوق الاستيعاب الكامل للموقف.

ويمـوت الأب، وتتدهور الحال بالأخ الأكبر، تتراجع قوته وتتشتت قدراته ويضمحل نفوذه وتدريجياً وبفعل الذكاء وبمساندة امرأة يتقدم الشقيق الأصـغر الصـفوف ويصـير هو القائد الذي يحقق أكبر العوائد للأسرة، تضـاعفت الأموال إلى القدر الذي جعل الأسرة كلها تتناسى ما حدث من مصيبة إنسانية ونعموا بالمال الكثير الذي لا يأتي إلا عن طريق رجل خان شـقيقه وامـرأة خانـت زوجهـا ينفذ مخططاتها الذكية في إدارة الشئون المعنوية للأسرة ومضاعفة الدخل.

وحـتى الآن يبدو أن الشر هو الذي انتصر وأنه الأقوى وهو الذي يحقق النجاح والثروة، وأن الناس تجبن وتتراجع وتنهزم أمام الشر بل ربما تتملقه بعد ذلك وتعترف بوجوده ما دامت تستفيد منه، والاستفادة تكون في شيء واحد فقط هو المال.



الأشياء

فـــي الجـــو غيم، الهواء لم يعد عليلاً، وغير قادر على حمل عبير الـــورود، ولقـــاح الـــزهور، والشـــمس أضحت مضجرة، والقمر خَبَا منه الضوء، وأما النهار فشاحب والليل باهت والفجر قاتم، فشلتُ في أن أضرم النيران في مشاعري لعلي أحس شيئاً.

حـــتى الألم فقدت الإحساس به، حاولت أن أنعش العقل بفكرة جديدة فأغلق أبوابه في وجهي تماماً، جاهدت أن أزُجَّ بعاطفة في وجداني فطردها شـــر طرْدَة، خَوَاءٌ في الداخل والخارج، انعدمت الحركة لا وزن للأشياء، القيمةُ انعدمت، إذن ما الجدوى؟ لا جدوى.

وانتهز الشيطان الفرصة، دعاني إلى حفلة خمر ونساء والكازينو يَعِدُ بمـــال وفـــير، حاول، جرب، الحياة لذيذة، لا تفقد الأمل، في الخمر شفاء، وفي النساء دواء، والمال يحيي الموتى، حاول، جرب، الجنة على الأرض وليســـت فـــي السماء فقط، سينتشي العقل بجرعة خمر، وسيرقص القلب بملامسة امرأة، وستتمايل الروح بسماع الطرب. أما المال فسيدهش كيانك ويـــنفخك بالزهو ويتخمك بالقوة، حاول جرب، وحينئذ سيعود للجو صفاؤه وســـتجد للهواء رائحة وللليل طعماً وللنهار بريقاً وسيطلع عليك الفجر وقد بلغـــت النشـــوة منـــتهاها، فقمرك سيكون مسكراً مثل الخمر، أما الشمس فستردك إلى صوابك لتنتظر على أحر من الجمر مجيءَ ليل جديد.

فكـــرت فـــيما قاله لي الشيطان وتخيلت الجنة التي يعِدُ بها فلم يهتز لدى شيء، أدركت أن ما ألم بي فوق المادة وفوق قدرات الشيطان لا ينفذ

إلـــى النخاع، بل لا يمس السطح أيضاً، شيء ما قد تعطل، مُوَلِّدُ الروح قد توقــف فلم يعد يبث إحساساً أو فكراً أو عاطفة، نبع الحياة قد نضب فأمتنع جــذور الشــجرة عن الامتصاص وتوقفت عن ضخ ماء الحياة إلى الساق والأوراق فغابت عنها الثمار، والشجرة العقيم لا جدوى منها.

إذن مـــاذا أفعل؟ لم يبق إلا الموت، وهل يموت الإنسان مرتين؟ وما جــدوى مــوت الجســد بعــد أن ماتت الروح؟ ذهب عني الشيطان لأنني استعصــيت عليه ليس ورعاً مني وإنما فشل منه. قلت لنفسي أجوب الكون لعلـــي أجــد دواء الروح وبلسم الحياة، أين أذهب؟ هل أتخذ دليلاً أم أترك الــنفس على سجيتها. ومن أين أبدأ؟ قلت لنفسي فلأبدأ بعالم الأشياء، أشياء كثــيرة كنــت أحبها، لعلها مازال فيها نبض يصل إليّ، لعلها مازالت تشع ضـــياء يضيء القبو ويدفئ الجسد الميت، أشياء كنت أحبها وكانت تحبني وكنت أداوم على زياراتها ومناجاتها، أشياء يراها الناس جماداً وأعُدُّها حية تتفاعل وتتبادل مع محبيها الأشواق، أشياء هي الجمال بعينه، خلقتِ جميلة لعيني وأسبغتُ عليها جمال مشاعري، جمال فوق جمال.

ركبــت قطاراً طائراً إلى المدينة الحسناء، كنت لا أراها إلا ضاحكة ولــيس فقــط مبتسمة، ضحكاتها يصدر عنها صوت يفيض بالأنوثة، هي عندي امرأة هكذا إحساسي ناحيتها، تعودت أن تستقبلني بالأحضان أول ما تطالعنـــي رائحـــتها تنتابني دوخة بسيطة من شدة التأثر، ثم ابتهج، أروع لحظـــة هـــي لحظة دخولها، مطالعتها، مصافحتها، ثم احتضانها، ومن ثم شـــمها، تناديـنـــي فأقتحمها نتبادل كلمات الأشواق، أسمعها مثلما أسمع أي كائن حي، فهي كائن أكثر حياة، وإذا حدثتها فهي تسمعني بل تتمايل وهي تسمعني.

وقـد نغني معاً لها أغان كثيرةً مشهورة هي وأهلها، لا ينقطع منها الغـناء، فهـي مدينة المرح والأحلام والذكريات، ليلها أجمل من نهارها، ونهـارك أجمـل مـن ليلها، صيفها أجمل من شتائها، وشتاؤها أجمل من صيفها.

قلـت أذهب إلى شاطئها، أعرفه رملة رملة، وأعرفه موجة موجة، إنمـا معرفة وثيقة، معرفة العشاق، ذهبت إلى نادي الغناء، سكر بلا خمر، تكفـي الألفة والقديم من الألحان، ومنه إلى الشارع الطويل والجامع العتيق والقلعة العتيدة، ثم إلى الحي القديم، أجوب وأجوب، لعلي أنهض من موتي، أيـن مـاء الحياة، لم أجده في مدينتي الأسيرة، كانت جرداء خالية من أي معـنى، وكأنهـا غريبة، عرفت معنى الموت، الموت هو الغربة، ضمور القلب وخَوَاء الروح.

المـوت أن تكون بلا تاريخ حينما ينمحي تاريخك، الموت هو قطْع الحبال، بينك وبين كل من عرفت، الموت غرقاً هو أبلغ موت، هو الموت الحقيقي حيث تهبط إلى القاع، قاع لم ترِدْه روحك من قبل فيبدو كل شيء غريباً غير مألوف، الألفة هي أوثق رباط بالأشياء.

الألفة هي وليدة الحب، أحِب شيئاً تألفْه، وحين تلتقي به تطمئن، حتى رائحـة البـن تحبها، وتألفها والبارفان والألوان والأصوات، والضحكات والألحان والأكلات والملابس والأماكن.

حواسـك لابد أن تألف شيئاً لتراه جميلاً وممتعاً ولكي تعود إليه مرة أخـرى، أن تعـود إلـى شيء مرة أخرى فأنت ألفتَه، أي أحببته، أي هو يمـتعك، أي هو جميل، أو هو أجمل شيء في هذه الحياة إنه عالم الأشياء، أشـياء ترتبط بها، أشياء تلازم خيالك ومشاعرك وفكرك وضميرك، أشياء

من الجماد ولكنها تصير من الأحياء، فالشارع يتكلم والليل يهمس والألوان توشـــوش، والـــبحر يتنفس، والأشياء كلها تضحك وتبكي، تسعد وتحزن، تتحمس وتضجر، أنت تضفي عليها من شعورك وهي أشياء ليست منفصلة عـــن عالمـــنا الداخلـــي، عالم الشعور والفكر والإحساس، نحن جزء من الأشـــياء وهـــي جـــزء منا، إنها وحدة الكون بكل ما فيه، تواصل عجيب وذوبان أعجب.

ووســـيلة الـــترابط هي الألفة، والألفة حب، والاغتراب موت، لأنه انفصـــال عن الكل، انفصال عن الكون، وقبل أن تموت فإن الأشياء لديك تمـــوت أيضـــاً تفقد وزنها، فتصير لا شيء، الأشياء تصبح لا شيء، إنها غريبة عنك، لأنك فقدت الألفة معها، وهذا مرض يسبق الموت، وهذا موت يسبق الغناء، فتصبح أنت أيضاً لا شيء والأشياء لا شيء فيصبح الكون لا شيء فنعود من جديد إلى نقطة العدم، عند نقطة العدم في الماضي السحيق لـــم يكـــن هـــناك شيء، ولذا لم يكن هناك معنى، ثم خلقت الأشياء تباعاً، وتعارفت الأشياء فنشأت الألفة، فعرفنا الحب وعرفنا الجمال.

عدنـــا إلـــى نقطة العدم، لا أرض ولا سماء، بل فراغ، فراغ يتبعه فـــراغ، وفـــراغ يعلوه فراغ، لا حدود، ولا هواء، ولا توجد أدنى فرصة لبعـــث الحياة حيث لا توجد عناصرها. ولكن أين ذهبت الأشياء التي كانت موجـــودة مـــن قـــبل؟ ربما لم تكن موجودة أصلاً، ومن يجزم بأنها كانت موجـــودة!! أم أنهـــا موجـــودة فعلاً ولكن لأنها لا تتفاعل فيصبح وجودها كالعدم، من لا يتفاعل فهو غير موجود.

وأنا الآن لا أتفاعل مع مدينتي إذن أنا غير موجود، أنا لا أتفاعل مع الأشـــياء والأشـــياء لا تـــتفاعل معي، إذن أنا غير موجود، والأشياء غير

موجـــودة، وكأننا عدنا إلى نقطة العدم وكلمة (وكأننا) تعني الاعتراف بأننا كـــنا موجودين ولكن صرنا غير موجودين، كأننا عدنا إلى نقطة العدم لأن القلـــب لا ينبض والفكر تعطل والإحساس تبلد، فأصبح كل شيء بلا طعم ولا رائحة ولا لون ولا قيمة، أي ميت.

تركـــت المديـــنة، ولأول مرة أتركها بلا ألم، كانت أسوأ لحظة حين أغادرها مثلما كانت أجمل لحظة حين أطالعها، حين دخولها، حتى الألم لم أعد اشعر به.. أين أذهب؟

جاءتنـــي فكرة أن أذهب إلى مكان جديد حيث أشياء جديدة لم يسبق لـــي معرفـــتها وليس بيني وبينها ألفة، لا توجد علاقة سابقة، لا يوجد حب قديم.

ســـافرت إلـــى مكان جديد أطؤُه لأول مرة، كل شيء جديد، داخلني خـــوف، إنهـــا بداية طيبة فالخوف هو نوع من المشاعر، الخوف شعور، يســـبق الطمأنيـــنة، لا طمأنيـــنة بدون خوف سابق عليها، إذن نحن نخاف لنطمئن ولا شيء يطمئنك غير أن تألف وأن تحب.

طالعـــت الأشياء الجديدة، كان كل شيء حيادياً، ولم أتلق أي دعوة لمـــزيد من التعارف، أنت عابر ونحن عابرون في ذاكرتك، سوف تنسانا وســـوف ننســـاك، الذاكرة معانٍ ومشاعر، وأنت لم تثرْ لدينا أي معنى ولم تحرك أي شعور، وهكذا نحن أيضاً لم نهو فيك شيئاً، ستنطوي تلك اللحظة إلـــى الأبد وكأنها لم تكن، تصور أن حاضراً يمضي ولا يصبح ماضياً، يا للعجـــب، إذن الـــذي يصـــنع الماضي هو المشاعر، الماضي هو حاضر ارتبطـــنا به، الماضي هو حاضر حفر شيئاً داخلنا، الماضي هو حاضر مد بينـــنا وبيـــنه رباطاً لا ينقطع، إذن الماضي كيان متفاعل الماضي ينبض،

الماضـــي حــياة، الماضي يعني أن حاضرنا كان له معنى وكانت له قيمة، الماضـــي هو امتداد لألفة الحاضر والألفة حب والحب طمأنينة، أو الحب ألفة والألفة طمأنينة.

لفظتنـــي المديـــنة الجديـــدة بأدب، لم تطردني ولكنها لم ترحب بي، ونسيتها فعلاً بعد أن تركتها، لم أعد أتذكر منها شيئاً واحداً.

لا شـــارع ولا شـــجرة ولا نهر ولا بستان ولا رائحة ولا حطام ولا ليل ولا نهار، لا شيء، لا شيء بالمرة.

وضـــاع الوقـــت الذي قضيته بها هباء، وأي قيمة للوقت إذا اقتصر علـــى الحاضـــر ولـــم يتحول إلى ماض، قيمة الوقت في أن نقول إنه كان وبالتالـــي فلنا أن نتوقع أنه لن تكون هناك قيمة للمستقبل لأنه سيصير إلى نفس المصير أن يتبخر أن يصبح عدماً.

ضـــاع مني الزمن أيضاً مثلما ضاعت الأشياء، وما الحياة إلا زمن وأشياء، ولم يبق إلا أن أخرج من الأرض إما إلى قاع البحر أو إلى عَنَان السماء لعلى أجد أشياء أرتبط بها فتعود إلى الحياة.

تناقضات عاطفية

مـــن قال إن كل الجراح تبرأ.. إن منها ما يميت ومنها ما لا يستمر حتى بعد الموت.. يموت الإنسان ويظل ذلك الجزء المجروح حياً من بعده لا يكف عن الأنين من الألم.. حتى الموت لا يهزم الجراح..

وهـــنا تســـقط دعـــوى أن الزمـــن يلملم الجرح أو أن الزمن شفاء، والشـــفاء يكون عن طريق النسيان. فلا شيء ينسى حتى وإن التأم الجرح فـــإن موقعـــه يظل سخياً بالألم. ويشتد الألم في حالتين: الأولى، حين تحل الذكـــرى الســـنوية لمسببات الجرح والثانية حين يتعرض الإنسان لموقف مشـــابه.. الموقف الجديد يشعل النيران في الجرح القديم فيبدو وكأنه جديد من شدة الألم.

والذكـــريات أســـوأ مـــن الحـــدث ذاته.. ففي الذكريات اجترار في الذكـــريات تجمـــيع لكل ما هو سيئ واستعادته.. تصبح الصورة مكتملة.. بانورامـــا.. ومـــن ذلك يمكن الوصول إلى الحقيقة.. وبعض الحقائق تدعو للـــيأس.. ولا أمـــل فـــي الإصلاح.. ولا أمل في النسيان، ولا طريق إلا التناســـي أي بـــذل جهد إرادي لتبدو أمام نفسك أنك نسيت والحقيقة أنك لم تنسَ وإنما تسدل ستارة واهية على الأحداث فتراها وكأنك لا تراها.

ستارة كاشفة فاضحة ولكنها ستارة تعوق الرؤية الكاملة الواضحة.. ومـــا لا تراه مكملاً أو واضحاً فكأنك لا تراه ولكنه يظل موجوداً.. إذن هو موجود ولكنك لا تراه.. هذه هي المعادلة أو هذا هو التناسي.. هو نوع من التغليف الرديء.. فأنت تحمل أسفارك على ظهرك ولا تراها ولكنك تعرف

محتواها.. وهذا هو الفرق بين الإنسان والحمار.. الإنسان يعرف والحمار لا يعرف.. ولكن كليهما مثقل بحمله.. وما أشد أحمال النفس وأثقلها.. إنها تشد الإنسان إلى الأرض حتى يكاد يقع.. ولكن الرحلة لابد أن تمضي إلى حتفها.. لابد من مواصلة الطريق..

والصراع الأزلي هو بين العقل والقلب.. بين الفكر والوجدان.. بين الحكمة والهوى.. ويغلبنا الهوى ويشدنا القلب ويدمينا الوجدان.. العقل يصدر حكماً غير قابل للنقض.. مبنياً على حقائق لا تنكر.. ويأتي القلب ليفسد كل شيء.

فالهوى غلاب.. وتبدأ رحلة مصالحة النفس لكي تغفر أو لعلها تنسى دون أن تغفر أو لعلها وهو أضعف الإيمان تتناسى.. والذكريات الحلوة تشفع.

الشفاعة مطلوبة في مثل هذه الأحوال. والشفاعة معناها أن الإنسان لابد أن يخطئ لأنه ضعيف.. ولهذا فهو يحتاج لمن يتوسط له. يحتاج إلى شفاعة قوة أكبر.. يحتاج إلى كرامات سابقة تخفف من هول الحقيقة الواقعة. يحتاج إلى من يطلب السماح من أهل السماح وإذا لم يكن السماح ممكناً فلننح الأمور جانباً ونكمل المسيرة. فلندفعها بعيداً عن منطقة التذكر المباشر، فلنحبسها في الغرفة المظلمة من مستودع الذكريات، فلنغلفها حتى وإن كان التغليف رديئاً ولكنه على الأقل سيعوق الرؤية المباشرة والواضحة.

سيعوق الاجترار الملح، سيعوق أن نربطها بأحداث مشابهة حتى لا تبرز حقيقة دامغة لا تدع أي فرصة للتناسي بل تؤكد أن السيئ يظل سيئاً لأنه طبع على السوء.. هكذا خلقه الله بنفس ضعيفة متدنية تنزع إلى

الانحـــراف وتميل إلى الدنس وتستهويها القاذروات.. ما أبشعها من حقيقة ومـــا أروع أن يتســـامح الإنســـان فـــإن لم يستطع فلينسَ.. فإن لم يستطع فليتـــناسَ.. غير أن التناسي ليس علاجاً.. ليس حسماً نهائياً للأمور، ولكنه تســـكين مؤقـــت لـــلآلام.. حجب مؤقت للحقيقة.. ففي لحظة تنهار الحيل الدفاعـــية التـــي استخدمها الإنسان ليتناسى وإذا به يعيش التجربة المريرة وكأنها وقعت الآن في التو واللحظة.

ويـــا لتعاسة الإنسان إذا كانت الخبرة المريرة تتعلق بأمانة عزيز أو صدق صديق أو إخلاص حبيب..

هذه هي الجراح التي لا تتبرأ.. هذه هي الجراح التي تظل حية حتى بعد أن يودع الإنسان في القبر.

والقصة بسيطة جداً يعرف كل منا عشرات مثلها.. إذن ليس فيها ما يثـــير.. وربمـــا لو قرأ الإنسان سطورها الأولى لتركها وانصرف لشيء آخـــر، القصة هي أن زوجة جميلة وصغيرة ومخلصة لزوجها الذي تحبه تململـــت فـــي الفـــراش وهـــي نائمة.. مدت يدها في اتجاه زوجها النائم بجوارها. كانت هذه هي عادتها إذا أخذ النوم في الانسحاب من عينيها فتمد يدهـــا لـــتمس زوجها فتهدأ وتعود مرة ثانية إلى النوم.. كانت أسوأ لياليها حين يضطر للسفر في عمل فيصبح مكانه خالياً في الفراش فإذا استيقظت في أي وقت من الليل لا تنام.. النوم العميق ارتبط به.. وأحلى صباح حين تفـــتح عينيها عليه. وهو بجوارها فتهزه هزاً رقيقاً فيقول وأكثر من نصف عقلـــه نائم: صباح الخير.. فتدب الحياة في أوصالها وتنهض نشيطة لِتُعَّدله العصير.. أشياء بسيطة ولكنها كانت من أساسيات حياتها.. ولاحرمان منها ولو ليوم واحد يصيبها بالألم والعطش.

في هذه الليلة مدت ذراعها إلى أقصاها فلم تجده بجوارها فتصورت وهـــي ما زالت في شبه غيبوبة النوم، أنه مسافر ولكن سرعان ما استيقظ عقلهـــا بالكـــامل، لتـــتذكر أن آخر مرة رأته فيها كانت منذ ساعات وهما يدخلان الفراش معاً، وأنه تكاسل عن مداعبتها كالمعتاد.. قالت ربما ذهب للحمـــام.. انتظرت وقتاً كافياً ولكنه لم يعد.. لم تشأ أن تنادي عليه حتى لا يســـتيقظ من في البيت... ساورها قلق له مسبباته. نهضت في اتجاه معين.. وقفـــت علـــى بـــاب غرفة بعينها تتصنت سمعت حركة ربما أنفاساً تتردد بســـرعة مـــن الصعب سماعها إلا إذا توقعتها. استعصى الباب على الفتح حيـــن حاولـــت.. صـــرخت.. وســـرعان ما فتح الباب من الداخل خشية الفضـــيحة.. فـــاندفع زوجهـــا إلى الخارج بينما ظلت قريبتها التي جاءت لـــزيارتها قابعـــة على الفراش مطأطأة الرأس.. هذه كانت اللحظة الوحيدة المثـــيرة في القصة، يفتح باب غرفة مغلق على رجل وامرأة معاً لا يوجد مـــبرر لوجودهما معاً داخل حجرة مغلقة.. مغلقة من الداخل لتمنع سهولة اقـــتحام الحجـــرة لأن من كانا معاً بالحجرة يودان حجب شيء معين عن الأعين.. حاول الزوج أن يبرر موقفه ولكن الصدمة أفقدت الزوجة القدرة على السمع..

وتركـــت البيـــت أربعة أشهر كاملة.. وبذل هو جهوداً مضنية حتى استطاع أن يستعيدها للبيت.

وقبل أن نستطرد وربما لا يتوقع أحد أي أحداث مثيرة تأتي بعد ذلك إلا أن الذي نريد أن نوضحه أن هذا الزواج لم يكن عادياً.

إنهـــا قصة حب طويلة وحقيقية.. علاقة حب أثمرت زواجاً وأطفالاً وبيتاً مستقراً وحياة أحلى من العسل ومستقبلاً مشرقاً.. كل ذلك على مدى

ســنوات اقتربت من العشرين.. والحق يقال إن الزوجة كانت جميلة وذكية ومتفانية، والغريب أنه هو الذي بدا عليه تقدم العمر ففقد قدراً غير قليل من جاذبيته وتأثيره على الجنس الآخر فلا يعد مطمعاً لأي امرأة لأي غرض..

هذا بالإضافة إلى أن سمعته قبل الزواج كان يشوبها الكثير وخاصة فــيما يتعلق بعلاقته بالجنس الآخر إلا أن الزوجة العاشقة تغاضت عن كل ذلك لأنه حدث في الزمان الماضي قبل أن تلتقي به.

المهــم أنهــا عادت إلى البيت واستأنفت الحياة.. والحقيقة أن الزوج بــذل جهداً مضنياً لاسترضائها لأنه كان يحبها حقاً ولا داعي لأن تخوض نحن في تفسير خيانته لها رغم أنه ينكر بشدة الخيانة وأنه ما خانها منذ أن تــزوجها رغم ولعه بالنساء.. ولقد قدم مبررات ساذجة لا تصدق لوجوده في حجرة قريبة زوجته في هذا الوقت المتأخر من الليل.

أما هي أي الزوجة فلم تغفر أبداً ولم تنس أبداً وكانت تقول لصديقتها التــي عرفت بالقصة كيف أنسى واقعة رأيتها بنفسي.. إن ما نراه بأعيننا هــو الحــق.. أمــا ما نسمعه فيحتمل أنه باطل.. ولقد سمعت عن سلوكه المعــوج الكثــير ولكننــي كنت لا أصدق.. والملابسات كلها تدينه.. ولقد حاولــت أن أخدع عقلي وأصدق أياً من ادعاءاته، فلم أستطع.. تسألينى يا صــديقتي لماذا عدت إليه.. والإجابة إنني لا أعرف.. ربما لأنني مازلت أحبه.. وكيف أحب من خانني!! فأقول إنني أحبه أحياناً أحبه كثيراً وأكرهه قليلاً وأحياناً أخرى أكرهه كثيراً، وأحبه قليلاً. ولكنه خائن خائن خائن.. لا أستطيع أن أراه إلا خائناً.

لقــد بذلــت جهــداً خارقاً لكي أسامحه فلم أستطع، ولم أستطع أن أنســى.. ولكنــي أتــوّه عقلي.. آخذه بعيداً.. أحياناً أسيطر على هذا العقل

وأنســى فــي اللحظة الحاضرة ما فعله.. تغيب عن مخيلتي صورته وهو خارج من الحجرة وصورتها وهي جالسة على السرير..

أحــاول أن أندمــج فــي لحظة الحب معه.. وخاصة وأنا أراه يبذل الجهــد لإرضائي وخاصة أنني مقتنعة فعلاً بأنه يحبني.. أصدقه في لحظة أنــه لــم يخنــي.. ولكني أعود فأتذكر التفاصيل المخزية وأضم إليها كل القصص الأكثر خزياً التي حكيت عنه.. إن له تاريخاً أسود يؤيد أي سلوك انحرافي يصدر عنه الآن أو في المستقبل.

لا أحــد يتغــير وإنما تغيُّر الظروف هو الذي يجعل بعض الميول والطــباع تــتوارى ويجعــل البعض الآخر في منطقة الضوء. الانحراف مطبوع على الجينات ولم يستطع أحد حتى الآن أن يغير جيناته.

ولقــد أصــبحت أشــك في كل سلوكه.. فهو كاذب ولكنه يجيد فن الكــلام.. يجــيد تزويق حديثه. يمتلك قدرة أن يجعلك تصدقه.. وكنت في الماضــي أصــدقه.. ولكني الآن أتشكك في كل كلمة يقولها.. ولقد أرهق أعصابي كثيراً بمتابعته ومراقبته.. استنفد كل طاقتي حتى كدت أن أموت. فأصــابتني اللامــبالاة.. ولقــد توصلت إلى صياغة أراحتني.. فليفعل ما يشــاء.. هذا أمر لم يعد يهمني لقد أغلقت باب الغيرة تماماً.. حقاً إنني لا أغــار علــيه.. فاســترحت كثيراً.. أصبحت أنام بعمق.. أصبحت أستمتع باللحظة ولا أفكر فيما قبلها أو فيما سيأتي بعدها.. لو غاب عن ناظري لا أهتم لو تأخر في مكان مجهول لا أسأل.. أصبحت لا أتحقق من رواياته بل أدعى أنني أصدقه.. قد تسألينني يا صديقتي كيف وصلت إلى هذه الحالة؟

أقــول لقــد تعبت.. أرهقتني شكوكي.. أتعبتني متابعته.. ذبحتني مشاعري المتناقضة نحوه والتي هي مزيج من الحب والكراهية.. كان علي

أن أعــيش معـــه بكل أحاسيسي وهذا معناه أن أسامحه وأن أنسى تماماً أو أتــركه دون رجعـــة.. لـــم أستطع هذه أو تلك.. لا أستطيع أن أنسى ولا أســتطيع أن أتركه.. وبذلك كنت أموت في كل لحظة.. وكرد فعل طبيعي للجهاز العصبي ليدافع عن حياتي فإنه أصيب بالتبلد. فليفعل ما يشاء بعيداً عنـــي ولكنني لا أريد أن أرى شيئاً بعيني.. آه من رؤيا العين.. هذا هو ما يذبح حقيقة..

إن مـــا تـــراه عيـــناك حـــقٌ إلا إذا كنت مجنوناً ومصاباً بالهلاوس البصـــرية أي تـــرى أشياء لا وجود لها.. ويوم أن رأيته مع قريبتي خلف حجرة مغلقة بعد انتصاف الليل لم أمكن مجنونة بل كنت أثق به وأحبه إلى حد الجنون أما الآن فقد برئت من الجنون ولكنني أحبه أن يظل معي لأني تعودت أن أرى الدنيا معه. تعودت على وجوده وأسلوبه وطريقته.. تعودت على أنفاسه.. لم أهتم برجل آخر غيره، ولا أستطيع أن أكون لرجل آخر. لقد حاولت على مستوى التخيل فلم أستطع.

إني لا أصلح لأي رجل آخر غيره.. المرأة لا تكون إلا لرجل واحد إلا إذا كانت شاذة.. والمرأة تعتاد الرجل نفسياً حتى وإن خانت بجسدها فلا يملـــك فكرها ومشاعرها إلا رجل واحد لا يتغير ولا يتبدل.. والمرأة تحب الاعتـــياد وتميل إلى الاعتمادية ولا تتحول مشاعرها إلا ببطء شديد.. ولذا فالمـــرأة ليست تعددية في مشاعرها.. فهي لرجل واحد بمشاعرها وفكرها حتى وأن عاشرت عشرات الرجال.

هـــذه هي مشكلتي يا صديقتي والتي لا يستطيع أحد أن يتفهمها لأن كلهـــا متناقضات.. كيف أعيش معه ولا أغار عليه؟ كيف أسعد بملامساته وأنا لا أثق به؟ كيف أأتنس بصحبته وأنا أحتقره؟

كـيف أشتاق إليه وأنا أراه مجرماً؟ كيف أستمع إليه وأنا أعرف أنه كاذب؟

أسـتريح إذا ابتعد، وأتألم إذا غاب.. أفرح لذهابه وأشقى بامتناعه.. أهنأ برؤيته وأشمئز لتذكره.

إنها حالة من فوضى المشاعر وعشوائية التفكير.

والطبيـب النفسي يرى أنه تعلق مرضى واعتمادية عاطفية لسنوات طويلـة وعـدم القدرة على البداية من جديد لتقدم العمر. وأنا لا أراه تعلقاً مرضـياً ولكنه ارتباط له جذوره العميقة ضاربةً في سنوات العمر، أو أهم سـنوات العمـر تشكلنا فيها معاً وفق صياغات ترددت أفكارها الأساسية داخلـنا فـي تـناغم واتفاق فصبغت الوجدان وأفرز أسلوب حياة وأقرت الأساسيات وأكدت مفاهيم ومعاني فأصبح من المتعذر أن ينسجم العقل وأن يمـيل القلـب وأن تألف الروح مع إنسان آخر، وأنا أعرف أنه هو ذاته لا يسـتطيع أن يعيش مع امرأة أخرى. ولذلك فقد كتب علينا معاً العذاب ولا مفر إلا عن طريق اللامبالاة وهذا هو المرض الحقيقي.

امرأة وثلاثة رجال

مــتى يزرع احتياجٌ مّا لدى الإنسان. وكيف تتوزع الاحتياجات على البشر؟ ولماذا يكون احتياج ما ملحّاً لدى إنسان فيدفعه أحياناً إلى حماقة أو انفعــال جنونــي نحو فعل ما؟ وكيف يتخلص الإنسان من تلبية داعي تلك الاحتياجات التي تسبب له حرجاً أو تعرضه لمخاطرة أو لارتكاب معصية؟ وهل ينجح الإنسان إذا حاول؟ أم يظل عبداً لاحتياجاته الضاغطة التي تزأر مــن أجــل أن تلبَّي ولا يستطيع منها فكاكاً أو علاجاً!! وما مدى مسئولية الإنسان أمام ربه أو أمام القانون إذا ارتكب فعلاً تلبية لاحتياجٍ مّا يتعارض مع قيمة مفروضة ونواهٍ معروفة؟

يــا لــتعس الإنسان وضعفه وقلة حيلته وهوانه، إنه عبد ذليل أمام احتــياجات ونــوازع وميول وغرائز ولا يعرف مصدرها ولا يقدر على مقاومتها ولا يدري كيف يتخلص منها.

سألت نفسي هذه الأسئلة وعشرات مثلها وأنا عائدة إلى بيتي اليوم.. وفــي كــل يــوم لعجبي من أمر نفسي وغرابة أحوالي ويأسي من أفعالي وعجزي أمام احتياجاتي ورغبتي في صلاح حالي.

وحكايتــي أننــي أعــرف ثلاثة رجال في وقت واحد ولا أستطيع الاســتغناء عن أي واحد منهم، وقبل أن أخوض في هذه الحكاية فلأعرّف نفســي أولاً، أنــا فتاة في التاسعة والعشرين من عمري أنتمي إلى الطبقة الاجتماعــية المتوسطة وأعمل في وظيفة حكومية وبالطبع تصبح متوسطة

القــيمة وتكشف عن تواضع مهاراتي المهنية، ورغم أن شكلي يطلق عليه أنـــه من النوع المقبول إلا أنني ذكية وظريفة ومسلية وأعرف أشياء كثيرة فـــي الحـــياة من قراءتي الغزيرة ومن كم الأفلام العديدة التي شاهدتها فأنا مولعة بثلاثة أشياء: القراءة والسينما والرجال.

أعيش بمفردي مع أمي المريضة والتي أقوم على خدمتها كل الوقت باســـتثناء الســـاعات التي أقضيها في عملي وتلك التي أسرقها من الزمن وأقضـــيها مـــع أصدقائي من الرجال، مرضها فرض نوعاً من الكآبة على البيـــت ولكنني لست مكتئبة إذ مازلت أستمتع بالحياة وأطلب المزيد، مات أبـــي وأنـــا في الثالثة وعاشت أمي لرعايتي دون زواج، ليس لي أخوة أو أخـــوات، وكذلـــك لا عم ولا خال، وبذلك أريد أن أقول إنني لم أعش مع رجل في طفولتي، لم أعرف كيف يعيش الرجال في البيوت وما دورهم في الحياة وماذا يفعلون مع النساء والأطفال؟

الرجال كنت أراهم في الشارع فقط وأندهش لهم، لم أر رجلاً عارياً أو نائمـــاً أو وهو يأكل، ولذا تكوَّن لدي حب استطلاع شديد لأتعرف على حياة الرجال، كنت أبحلق في أي رجل تقع عليه عيناي، وكذلك أسأل كثيراً عـــن أخـــبارهم وأسرارهم، وحين خرجت من أسْر الطفولة كنت أنتهز أي فرصة للحديث مع رجل أي رجل ألقاه في أي مناسبة.

ولهذا السبب تعرضت لمشكلات كثيرة صادمة ولكنها لم تفقدني حبي للـــرجال، وإنما أصابتني بالبرود، لقد اكتشفت حين اكتمل نضجي الأنثوي أننـــي لا أنفعـــل جنســـياً، أو إذا أردت الدقـــة فإن رد فعلي الجنسي تجاه محـــاولات الـــرجل كانت ضعيفة واهية لا تكفي لتحقيق متعة متبادلة ولذا أحجمت عن أي سلوك جنسي، وكان ذلك تناقضاً واضحاً في حياتي ما بين

مـــيل جـــارف للاقتراب من الرجال ومصادقتهم وبين رفضي لأي علاقة جنسية.

وأريـــد في البداية أن أنفي عن نفسي تهمة الميل لنفس الجنس أو أي شذوذ فأنا طبيعية تماماً إلا أن ميلي للجنس محدود جداً.

وصـــادقت كثـــيراً من الرجال، ومن كان يطمع في أكثر من حدود الصـــداقة كنـــت أفر منه، صداقة وحب واستظراف نعم، أما الجنس بشكله المتكامل فلا.

لـــم يكن لي صديقات بل كل هوسي كان بالرجال، لم أكن أفرق بين رجـــل طويل أو قصير، كثيف الشعر أو أصلع وسيم أو قبيح، ضعيف أو قـــوي، موهـــوب أو عادي، مشهور أو نكرة، الرجل الوحيد الذي لم أكن أقترب منه هو الرجل الغبي البليد الخامل التافه.

ولكن عموماً فإن الرجل هو الرجل، أحب كونه رجلاً، أرى الرجل هو الأصل في الحياة، أرى المرأة لا شيء بدون الرجل، الرجل هو المعنى والقـــيمة، الرجل هو الجمال الحقيقي وهو السيد، وهو القائد، والمرأة يجب أن تتفانى في خدمة الرجل وإسعاده.

ولذلـــك حفظت كثيراً من القصص والأشعار والنوادر والأغاني ولم أكن أكف عن الكلام والضحك، وكان الرجال يسعدون بصحبتي جداً ينسون همومهـــم ويسمعون أشياء جديدة، ويشكلون حياتهم بطريقة مختلفة، وكنت أنا أستمتع بصحبتهم وربما أكثر من درجة استمتاعهم.

شـــيء واحـــد لم أقدر عليه وهو الإخلاص لرجل، لم أكن مخلصة، كنت أعرف أكثر من رجل واحد في وقت واحد، على الأقل أعرف رجلين وربما ثلاثة، في الغالب ثلاثة إذ لم يكن لدي الوقت لأربعة، وأنا معذورة،

فكــل رجل مختلف عن الآخر، كل رجل له طعم ومذاق مختلف، شخصية مختلفة، فكر مختلف.

كل رجل وراءه حدوته مختلفة، تاريخ مختلف، بل أسطورة مختلفة، فكل رجل أسطورة، يكفيه أنه رجل، ما أروعها من كلمة.

لــم أعرف الإخلاص أبداً في حياتي لرجل واحد وأتصور أنني لن أعــرفه، سأظل هكذا امرأة لكل الرجال، وليس لي حيلة في الأمر، حاولت ولكــن أصـــابني الملل، فقدت الإثارة، شعرت بالحرمان. وهنا عرفت أن احتياجاتـــي متنوعة، أحتاج شيئاً ما من كل رجل لا يستطيع أن يعطيه لي رجــل آخر، كل رجل ماهر في أمر ما، ولكل امرأة ميزة ما، وكل منهما يقــبل عــيوب ومزايا الآخر معاً، مناطق القوة تعادل مناطق الضعف، ولا أحــد كاملٌ ولا يستطيع الإنسان أن يحصل على كل شيء والإخلاص ينبع من الرضا ومصدره النفس المطمئنة ويهب الإنسان السكينة.

ولكننـــي فـــي الحقــيقة قلقة، غير راضية، غير مطمئنة، لا أعرف السكينة ولا أعرف الشبع والارتواء فدائماً جائعة عطشة، احتياجاتي متعددة متــنوعة مخــتلفة وأيضاً ضاغطة وملحة تقهرني لتلبيتها، فاندفع وأتهور، أسعى لرجل يعجبني، أخلق الظروف للتعرف إليه، أبذل مجهوداً، أسعد إذا ألتفت إلي، وأبذل جهدي لإسعاده وإرضائه فيرتبط بي، يتعلق بي، قد يزداد تعلقــه ويفكر في الارتباط بي أو قد يفكر في تعميق العلاقة إلى المستوى الجسدي، ولكنني اكتسبت مهارة أن أجعله يعرف الحدود التي يقف عندها، فإذا رفض انصرفت عنه.

هكذا عشت حياتي منذ السادسة عشرة إلى السادسة والعشرين. وفي ثلاثـــة الســـنوات الأخيرة تثبت في حياتي ثلاثة رجال، ربما لأن كل واحد

مـــنهم لبى بشدة احتياجاً معيناً عندي ورغب في الاستمرار معي بشروطي ولذا لم أتخل عن أحد منهم خاصة بعد أن كبرت سني وكان لزاماً علي أن أتـــزوج لأنني في الحقيقة أريد أن أكون مسئولة عن أسرة، أريد أن أكون زوجة لرجل وأماً لمجموعة من الأطفال أريد أن أعيش هذا الدور المهم في حياة المرأة، فالمرأة خلقت لأن تكون زوجة وأن تكون أماً وليس لأي شيء آخـــر، وأنـــا أقـــول هذا الكلام بوضوح وإصرار لأي امرأة تتصور أنها ســـتنجح في أشياء أخرى، من تترك دورها كزوجة وكأم فلن تنجح في أي دور آخر.

ولـــذا فالرجل الأول في حياتي الآن هو الرجل الذي سأتزوجه، وهو يصـــلح لأن يكون زوجاً، لقد لبى عندي احتياج المرأة لأن يكون لها زوج، إنـــه الاحتياج للسكن، احتياج للاستقرار، أشعر بأنه لن يتركني أبداً، أشعر بأنـــه سيرحمني في أوقات ضعفي، أستطيع أن أكون على حقيقتي معه، لن أبـــذل جهداً زائداً لإرضائه يقبلني كما أنا بعيوبي وحسناتي، لن يملني ولن أملـــه، سيكون موجوداً دائماً لن أصاب بالحيرة والبلبلة معه، بل كل شيء أســـتطيع أن أتوقعه وأن أحسبه وستكون توقعاتي وحساباتي سليمة، وذلك في حد ذاته سيكون كفيلاً بزوال القلق.

مـــا أروع أن تكـــون متأكداً من أن توقعاتك ستحدث وأن حساباتك تصدق، إن هذا سيجعلني أنام بعمق، ما أحلى النوم بعمق، وما أجمله نوماً بـــلا كوابيس، هذا الرجل سوف يسامحني إذا أخطأت، هذا الرجل لن يجد غضاضة في أن يستعطفني إذا حاولت أن أهجره ولن أهجره.

إنـــه بســـيط غـــير متكلف لديه حس ديني عميق وليس لديه طموح مجـــنون، هـــادئ متزن، مخلص صادق أمين، هذه هي صفاته ولكن ليس

بشكل مطلق ولكن لديه الحد الذي يسمح بإقامة حياة زوجية مستقرة، وهذا مــا احتاجه بالضبط، أو بمعنى أصدق هذا هو واحد من احتياجاتي والتي لباها لي هذا الرجل بالذات.

أمــا الرجل الثاني الذي مازال مستقراً في حياتي منذ ثلاث سنوات هو رجل كبير وإن بدا شاباً في روحه وقوته، أقصد قوة إرادته وصلابته، والأهــم عــندي فيض حنانه واهتمامه، عمره تجاوز الستين بقليل، ميسور الحال، مثقف أتعلم منه، لديه شيء جديد يقوله دائماً لا يمكن أن تشعر معه بــالملل، مــتجدد كــل مرة يأتي بجديد، حياته متنوعة، ولكن الأهم عندي حــنانه، إنــه يحتويني، يشعر بي إذا كنت مرهقة أو متبرمة أو حزينة إنه يصــل إلــى أعمــاق نفسي بيسر وسهولة، وكم هو شيء رائع ومريح أن يعــرفك إنسان إلى هذا الحد، إن لذلك مذاقاً خاصاً. مذاقاً حلواً هذا الرجل هو الوحيد الذي أستطيع أن أنام وهو جالس أمامي، وهو الوحيد الذي أدعه يربــت علــى كتفي، هو الوحيد الذي أدعه يطعمني بيده، هو الوحيد الذي يأتينــي بهدايــا كثيرة وثمينة، إنني أسبح بحرية تامة في بحر حنانه، إنني أتغطــى إلى قدمي باهتمامه، إنني استدفئ واستنير بشمسه الساطعة دائماً، إننــي معــه أشعر بالحماية الكاملة من غدر الزمن وتلك إحدى احتياجاتي الكبرى.

أمــا الــرجل الثالث فقد كان يصغرني بثلاثة أعوام شاب قوي في جســده ووســيم لــيس له عمــل ثابــت كثير الضحك شديد المرح منفلت الأعصــاب يــثور لأتفــه الأسباب لا يقرأ كتاباً ولكنه يتمتع بلمعان ذهني عجيــب وحب للاستكشاف وثقة عالية بالنفس واعتزاز شديد بكرامته، بدأ معــي انطلاقاً من قناعة لديه بأنني سأجثو على ركبتي أمامه ليقبلني عنده،

تعرفــت إلـــيه حيـــنما اعترض طريقي شاب فضربه بقسوة استفزت لدي مشاعر جسدية نائمة، شكرته ومضيت معه، ومن يومها وأنا لا أستطيع أن أتـــركه بل هو لن يسمح لي بأن أتركه، يغار علي بشدة، سيقتلني لو عرف أننـــي علـــى علاقة برجلين غيره، كذبت عليه مرة فصفعني على وجهي والغريب أنني لم أغضب منه بل شعرت بسعادة إذ كانت المرة الأولى التي أتعـــرض فـــيها للضرب من رجل، إنه يعرف عني كل شيء، يتدخل في تفاصـــيل حياتي، يفرض رأيه، لا أقوى على معاندته، أستجيب لكل طلباته إلا شـــيئاً واحـــداً عرفه عني واحترمه وهو موضوع رفضي للجنس، إنه أقوى شخصية عرفتها في حياتي.

بمقاييس المرأة اليوم هو رجل حقيقي، وبمقاييس الفتاة العصرية هو فتى الأحلام، وبمقاييسي أنا فإنه لا يمثل إلا بعداً واحداً وهو القوة وبالذات لحماية امرأة، للذود عن بيت، لصد العدوان لتأديب الباغي وعقاب الظالم، هـــو الرجل الوحيد الذي أخاف منه ولا أعصي له أمراً ولكنني لا أستطيع الاكتفاء به لأنه رجل ذو بعد واحد، ليس مصدراً للاستقرار وليس مصدراً للحـــنان، ولكـــنه أكـــثر الرجال قدرة على إشعاري بأني أنتمي إلى جنس يختلف تماماً عن جنس الرجال أي أنتمي إلى عالم الإناث.

تســـألني عن ضميري فلا أدري بماذا أجيب، تسألني عن إرادتي فلا أســـتطيع أن أدلـــك علـــيها أمام ما يجتاحني من رغبات تلبية لاحتياجات، تسألني عن سعادتي فأقول لك إنني أستمتع ولكن شيئاً ما يعوق طريقي نحو اكتمال سعادتي تسألني عن المستقبل فأقول لك إنني لا أشغل نفسي إلا بأمر يومـــي، تســـألني عـــن حظـــي من الألم فأقول لك إنني أمسح عليه بعلاج ســـطحي فـــيخف مؤقتاً، تسألني عن حال نومي فأقول لك إنني أنام بعمق،

تسألني عن درجة اكتئابي فأقول لك إنني أضحك كثيراً، تسألني عن عذاب النار فأقول لك إن الله غفور رحيم، تسألني عن أملي في الجنة أقول لك أنا لـــم أرتكب أياً من الكبائر وقلبي عامر بحب الله، تسألني عن تطلعي للشفاء من حالتي فأقول لك إنني يائسة تماماً ولكن ليس إلى حد الانتحار.

اثنان على الأرجوحة

كرسي الأرجوحة جُعل لاثنين .. وكل كائن حي مزود بأجهزة الحب خلق منه اثنان.. الحب صنيعة اثنين وممارسته هي ما فعله اثنان.

وعملـية الخلـق بـدأت بواحـد أعقبته واحدة فصار اثنين.. خلقت الأرض لاثنيـن أو خلـق اثنان للأرض.. بدأت الحكاية برجل انبعثت منه أنثى..

لـم تكن مصادفة ولكن بترتيب من حكيم عليم، فصار ناموس الخلق قائمـاً علـى جنسين ذكر وأنثى لا ثالث لهما.. ومن تزاوجهما تولد إناث وذكـور.. والتزاوج هو حب وممارسة لهذا الحب.. ممارسة الحب حب.. فعـل حميمـي.. يؤكد المودة ويبعث الأمان ويشيع الدفء ويهب السرور ويعطـر الهواء ويطلق الألحان ويضخ الدماء ويملأ المصباح بزيت يشتعل بنار الوجدان فيثير نوراً يكشف عن عالم ساحر متخم بالأسرار.

والسـر الأعظـم يكمن في ذلك الاحتياج المُلحّ داخل كل منا ليلتقي بشريكه رفيق الرحلة ونصفه الآخر ولا اكتمال إلا به ولا معنى إلا في ظله ولا بهجـة إلا من خلاله ولا ذكرى وذاكرة إلا عنه وهو القاسم المشترك.. يأيهـا المخلوق من أجلي.. اقترب اقترب.. التحم.. ذُبْ وامتزج.. انصهر واتحـد.. أنـا لـك.. كلـي لـك.. أنت لي. كلك لي.. أنت محوري وأنا محـورك.. أنـا جـزء من كل، وأنت جزء من كل، وأنت وأنا نكوّن هذا الكل.. الكل في اثنين.. كل شيء من أجل اثنين. وفكرة الأرجوحة من أجل أن يمرح اثنان معاً.

ولــم اسأل يوماً لماذا خلقني أنثى وخلقك أنت رجلاً.. أنا قانعة بنوع جنسي ومقرر لي من قبل بدء الخلق أن أكون أنثى.. ولا أتصور أن أكون ذكراً.. ويبدو أن صفة أنني إنسان تعلو فوق نوع الجنس فحين تكون إنساناً لا فرق أن تصبح ذكراً أو أنثى.. أو نظراً لأنك ستلتقي بشريكك والذي هو من جنس مختلف وتتوحد معه فهذا يجعلك تشعر بأنك ذكر وأنثى معاً.. فلا شيء يتحقق إلا من خلالكما معاً.

فـــاللذة لا يصــــنعها إلا اثــنان معاً.. والحب لا يكون إلا من خلال اثنيـــن.. إذن لا فرق في أن تصبح ذكراً أو أنثى.. بل أنا لا أكون أنثى إلا مـــن خلال رجل.. كينونتي يصنعها رجل.. بل الحمد لله الذي خلقني أنثى لأحب رجلاً.. لأهب حياتي لرجل.. لأستمتع بصحبة رجل.. لأتزوج رجلاً وأنـــام بجواره ويرعاني وأقوم على خدمته وأشاغب فأخربشه فيحتويني.. إنــــه الـــرجل الـــذي يظهر إبداعات الأنثى ويستفز مكرها ويعري جنونها فتجـــتهد في أن تستعصي على فهمه وتستمتع بشبقه وشغفه وتفتنه وتحيره وترغـــبه ثـــم تمتـــنع ثم تقترب.. فيدرك سحرها ولا يعرف إلا بعضاً من سرها.. وللأسرار سحر خاص.

ولـــذا فأنـــا سعيدة بأنوثتي وبي حنين لأن أكتمل.. وحين رأيته في الحديقة تسارعت دقات قلبي ووقعت من على الأرجوحة التي كانت تهزني وحدي فأعانني على الوقوف وأجلسني بجواره ودفع بالأرجوحة إلى الأمام ثـــم أخذتـــنا إلـــى الوراء ثم إلى الأمام فدارت رأسي وملت إلى كتفه ولم أســـتيقظ من الحلم إلا بعد أن خطبني ثم تزوجني، وهكذا اكتملت.. ولكنني لم أحبل، انتظرت وانتظرت ولكن الله لم يشأ. أثور أحياناً وأهدأ، أعترض وأقـــبل، أحتج وأستسلم، أتمرد وأرضى، حرمت من نصف زينة الحياة أما

النصف الآخر فقد كان وفيراً.. وكان كريماً.. حاول أن يعوضني عن عدم قدرتـــه على الإنجاب، جبنا العالم شرقاً وغرباً، لا نفترق أبداً إلا من وقت أن يعمـــل، تعودنـــا أن نكـــون وحدنا.. لم نكن نحتاج لمن يؤنسنا، نشعر بالامـــتلاء والشـــبع والارتواء حين نكون معاً.. لا يساورنا الملل إلا حين يبـــتعد أحدنا عن الآخر فيهزنا الاشتياق ويتبدد الملل حين اللقاء.. وكنا لا نكـــف عن الكلام.. كلام.. كلام.. كلام.. ولم أكن أدري من أين يأتي كل هـــذا الكلام.. من موضوع إلى موضوع.. ومن حكاية إلى حكاية. وكنت اقـــرأ وجهه بسهولة.. أما هو فقد تخصص في قراءة صوتي فيعرف أنني مكدرة أو مسرورة وأنا أستطيع أن أعرف أنه مكدور أو مهموم. تواصلت أحاسيســـنا مثلما تواصلت روحانا فكنت في آخر العالم.. فأشعر مثلاً بأنه يتألم من بطنه أو أسنانه ويشعر هو بأنني محمومة أو خائفة فيتصل تليفونياً ليطمئننـــي أو ينصـــحني بدواء وكنت في البداية أندهش أما الآن فأصبحت متيقنة أن الأرواح تشعر ببعضها البعض من على بعد.

وفـــي يـــوم غير طيب شعرت بأنه يتألم من صدره فاتصلت به في عمله فطمأنني ولكن صوته كان واهناً وأنفاسه متقطعة فأسرعت إلى مكان عملـــه فوجـــدت أنهم سبقوني به إلى المستشفى.. تراكم إرهاق ستين عاماً وهموم ألف عام وسدّ شرايين قلبه. وأجريت جراحة ناجحة عدنا بعدها إلى الوطـــن وهو معافي ولكن بنصف حماسه، الشيء الوحيد الذي لم يفتر هو تعلقه بي بل ازداد تعلقه وأصبح لا يتركني لحظة إلا لعمل مهم.

تقلـــص عملـــه كثـــيراً رغـــبة في مزيد من الراحة حسب تعليمات الأطباء، أما أنا فقد أصابني الأرق، اضطرب نومي ولم يعد من بعدها إلى عمقه، نوم خفيف قلق غير مشبع وغير منعش، يُستهلَكُ أكثرُ من نصفه في

كوابـــيس مزعجة تتعلق بموضوع واحد هو رحيل زوجي عني. وفي يوم صـــحا زوجـــي منقبضاً وكنت أكثر منه انقباضاً، كان انقباضي نوعاً من الحزن والتوقع السيئ أما انقباض زوجي فكان ضغطاً على الصدر. قال لي أشعر وكأن فيلاً يجثم على صدري..

اخـــتفى لمعان عينيه الذي اشتهر به وشحب صوته وأبطأت حركته ولكنه أخذ يقاوم حتى يشعرني أنه بخير.. لم يستطع إكمال كوب العصير. لم يلمس فنجان قهوته، لم يلتفت إلى الصحف. ارتدى ملابسه بتثاقل وكأنما يتلكأ حتى لا يغادر، طالعت القتامة في وجهه وكأنه مصباح قد خبأ ضوؤه. اقتربت منه لأقبله ولكنني أحجمت إذ شعرت بأن شخصاً ثالثاً موجود معنا فـــي الحجرة. أدرت رأسي في كل مكان فلم أر أحداً. ولكنني كنت متيقنة مـــن وجود أحد معنا يتطلع بتحفز ناحية زوجي.. كرهت من الأعماق هذا الشـــخص وكرهت نظراته لزوجي، قلت لعلي جننت إذ أشعر بيقين بوجود كائـــن لا أراه.. وكـــدت أختـــنق لوجوده، شعرت بتقلص الشعب الهوائية، أردت أن أفـــر أنـــا وزوجـــي من المكان، وفعلاً فعلت، مضينا إلى حجرة أخرى، ولكن هذا الكائن اتبعنا اتجه ناحية زوجي، ولكني اندفعت وصددته بكـــل جسدي.. جعلت جسدي سياجاً لزوجي، وعزمت أن أدخل في معركة حياة أو موت مع هذا الكائن.

وفكرت في أن أقتله، أمسكت بفتاحة الخطابات ذات الطرف المعدني المدبـــب، ويـــبدو أنـــه قرأ ما بخاطري فابتسم ليس استهزاء ولكن شفقة. احتضـــنت زوجـــي رغم هذا الوجود الثقيل، قبلته في جبينه فوجدته بارداً مفترشاً بحبات عرق تكاد لا ترى ولكنها علقت بشفتي. وفجأة شعرت بقوة تنتزعني من زوجي وتبعدني عنه.

وفـــي هـــذه اللحظة صرخ زوجي ووضع يده على صدره متألماً.. نظر إلي بجزع، ووجدتني لا أستطيع أن أفعل شيئاً..

تركت الأمر كله للطرف الثالث الموجود معنا، وشعر فعلاً بأنه يقف علـــى رأســـه بعد أن أطاح زوجي على الفراش.. رأيت هذه اليد الغريبة تســـدل عيني زوجي وتضم شفتيه حتى لا ينبعث صوت. وذهب الألم عن زوجـــي وراح فـــي نـــوم.. وشعرت وكأنما هذا الكائن الغريب قد غادر المكان، فتقدمت نحو زوجي وهززته ليفيق من إغفاءته ولكنه لم يصح أبداً.

وخـــلا مكانه في الأرجوحة، وصرت وحيدة.. ناس كثيرون حولي ولكن مكانه ظل خالياً في الأرجوحة التي لا تسع إلا اثنين. صرت واحداً. وآن الآن لا أســـتطيع الحياة بدونه، لا أستطيع أن أتعامل مع الدنيا في عدم وجـــوده، لـــيس حزناً ولكنني فعلاً لا أعرف.. لا أعرف كيف أخطو، لا أعرف كيف أجلس إلى طعام، لا أعرف كيف أرحب بزائر.

لا أعـــرف كيف أختار ملابسي، لا أعرف كيف استحم إذ لا أطول ظهـــري لأدعكه. أشعر بعدم توازن وأنا أمضي في الطريق وحيدة، أشعر بأننـــي أقل من الناس، وأحياناً أشعر بالعار، أشعر بالخزي أريد أن أتوارى فأنا ناقصة منقوصة.

قـــالوا لـــي ستنســـين. ومضت الآن ثلاث سنوات وكأنه قد تركني بـــالأمس، مازالـــت رائحة عرقه بالبيت، مازالت الشعيرات الأخيرة التي تساقطت من رأسه على الوسادة. اتهموني بأني أتمادى في الحزن وأعززه ولكنني في الحقيقة لا أستطيع الحياة بدونه، الحياة ليست كالحياة حينما كان معـــي.. شيء آخر أن تكون وحيداً إذ عليك أن تدفع الأرجوحة بكل قوتك حـــتى تـــتحرك وحين تقع لا تجد أحداً ينهض بك، بل حركتها تصبح بلا

معـــنى.. حـــركة عبثـــية، حركة لا تبعث على السرور وإنما مملة رتيبة مـــتكررة، حـــتى الطفـــل لا يجد متعة في الجلوس إلى الأرجوحة بمفرده، البهجة الحقيقية لا تأتي إلا من جليس ثان على الأرجوحة.

مشكلتي في عدم الاستطاعة وكأن سيارة خبطت دماغي فأفقدتني كل مهارات السعي في الحياة.. أقع كثيراً وأتوه إذ أمضى بلا خريطة وأصطدم إذ الطرق مظلمة، والأهم أنه لا يوجد أي معنى لأي فعل أو حركة.

أصـــبح الاستمرار في الحياة عبئاً ثقيلاً، الشيء الوحيد الذي يسري عني ويجعلني أقبل العيش هو استعادة ذكري أيامي معه. لا حرمني الله من ذاكرتي إذا أرادني أنْ استمر في الحياة، ولْينهِ حياتي إذا أفقدني القدرة على التذكر.

ورغم أنني كرهت هذا الكائن الغريب الذي لم أشعر بوجوده إلا يوم أن غادر زوجي فإنني أتمنى زيارته لي ليأخذني حيث ذهب بزوجي.

امرأة عاجزة عن الحب

القمر في اكتماله يصبغ الليل بلون الفضة.. والليالي الفضية تحرض على الحب شريطة أن يشهد القمر الواقعة فمتعة الحب تتضاعف في حضن الطبـيعة حيـث الصـفاء والنقاء والجمال الأخاذ الذي ينطق بالقدرة وإذا العاشقان يعيشان القصة من أولها آدم وحواء.

الرجل بكر لم يعرف امرأة من قبل. والمرأة بكر لم تعرف رجلاً من قـبل، وإذا قوة شد طاغية تدفع كلاً تشوقاً إلى شيء مبهم وغامض وغير محدد ولكن في اتجاه هذا المخلوق الذي يشبهه ويراه لأول مرة.. ويتحرك اللسـان بكلمة لم تتردد في الكون من قبل: أنا أحبك.. فيرد الطرف الآخر تلقائـياً وبـدون توجيه إرادي منه وأنا كذلك أحبك.. وتقصر المسافة التي تفصلهما حتى يلتصقا فيستشعرا شيئاً جديداً.

يجعـل الأنفـاس تتقطع والقلوب تختلج والأبصار تشخص في غير اتجـاه.. ثـم يهدأ كل شيء ولا يبقى إلا الشعور بالخجل من القمر ولياليه الفاضحة الكاشفة للحدث الأعظم حيث كان اللقاء الأول بين آدم وحواء مثل كـل لقـاء تجدد بعد ذلك بين أحفاد آدم وحفيدات حواء. وأكثر ما يثير في اللقـاء الأول هـو الدهشة. دهشة أنك وجدت شيئاً كنت تبحث عنه. دهشة اللقـاء بإنسـان أول مرة رغم يقينك من أنك تعرفه حق المعرفة.. دهشة الانجذاب الساحق نحو هذا الإنسان والذي يشملك كلك فتتوق الحواس كلها لاحـتوائه بالعين والأذن واليد والفم والأنف.. كلما اقتربت منه تفرح وكلما ابـتعدت عـنه تيئس فتقرر أن تبقى معه.. ولكن إلى متى؟ ويأتي الزواج

ليـــنص علـــى الحياة الأبدية باسم الحب ومن أجل استمرار الحياة. وقرار الـــزواج يتخذه الإنسان في اللقاء الأول ومن النظرة الأولى ولكن يهدئ من قلقه ويطَمئِن نفسه فإنه يتظاهر بأنه سيفكر ويدرس ويتدبر الأمر قبل اتخاذ القرار. وأنه سيحكم العقل وليس القلب وحده لكي يختار الإنسان المناسب.. وإذا هذا الإنسان المناسب هو الذي انجذب إليه في اللحظة الأولى منذ اللقاء الأول ولم يستطع أن يبتعد عنه بعد ذلك.

والإنســـان، أي إنسان يخدع نفسه بالعقل ولكن في الحقيقة إن الذي وجَّهَـــه هو هواه.. والهوى هو الميل الفطري التلقائي وله قوة دفع لا حيلة للإنســـان بمقاومتها وهو الذي يملي على العقل ويجعله يتصور أن القرار قـــراره.. وهـــذا هو النصيب الذي لا مفر منه. هذه هي لعبة القدر.. هكذا يتزوج رجل وامرأة.

وأن يســـتمرا أو لا يستمرا هذا أمر آخر.. إنما لابد أن تكون هناك بدايـــة انفجار.. اشتعال.. انبهار.. انجذاب.. حركة الروح والقلب والجسد والعقل معاً..

وكالعطشان الذي يغمس فمه في النهر فإن آدم وحواء في كل زمان وبعد اللقاء الأول ينهلان بنهم من نهرين أحدهما عسل مصفى والآخر لبن طهور.. مذاق حلو وسائغ.. حيث أقصى متعة في الحياة.. متعة الحياة مع إنسان من الجنس الآخر تحبه..

الشرط هنا هو أن تظل تحبه أولاً.. وإلا يصبح الشراب بلا مذاق أو يصـــبح مراً، أو يصبح فاسداً، وفي هذه الحالة الأخيرة يحدث الانفصال.. وفـــي بعـــض الأحيان يستمر الزواج رغم فساد المحتوى والمذاق هنا يعم فساد أكثر يلوث الروح واليقين والضمير.

هكذا التقيا كانت بكراً أمّا هو فلم يكن.. كانت صغيرة دون العشرين لــم تعــرف رجــلاً من قبله.. عرفته فقط في خيالها. وبالصورة الطبيعية كزوج.. جميلة إلى حد شد الأنظار النهمة وغير النهمة من الرجال والنساء معــاً.. من أسرة تعلو كثيراً على المستوى المتوسط تتمتع بالرخاء المادي والــزهو الاجتماعــي المعقول وأسلوبٍ محافظ في الحياة منبعه تدين واع وعميق..

أمــا هو فكان معتدلاً في كل شيء ولا عيب ظاهراً يشكل عقبة إنه زواج تحفــه كل توقعات النجاح. وربما آفته الوحيدة والتي شفيت بالزواج هــي تعــدد علاقاته غير المشروعة بالجنس الآخر وهو شيء يقال إنه لا يعيــب في بعض المجتمعات.. يكبرها بعشر سنوات ذو وظيفة تعدُ بمزيد من الارتفاع وله دخل يضمن استمرار المستوى الذي عاشت في ظله.

أما هي فقد انجذبت له لوسامته وحسن هندامه وهدوئه وثقته بنفسه. أمهلها عاماً حتى انتهت من دراستها الجامعية وتزوجا.

ومــرت عشــر سنوات دون مفاجآت تهدد المسار الطبيعي للحياة.. كانــت سعيدة به وكانت تتصور من تأكيداته أنه سعيداً بها، إلا من بعض الانتقادات الرقيقة التي تتهمها بعدم الخبرة في الحب، غير أنها لم تهمل هذا الأمر فأخذت تقرأ وتسأل لتكتسب مهارة إسعاد الرجل في الفراش.. كانت تــبذل جهداً تحمد عليه وإخلاصاً في الأداء يكشف عن حرص زوجة على استقرار حياتها الزوجية.

إلى أن جاءت ليلة سوداء رغم أنها بدأت بداية ذهبية.. أعدت بعناية كــل شيء للحب.. هيأت كل ما يحبه.. استعدت كعروس في ليلتها الأولى وبيــنما هي تستمتع باللحظات الحاسمة متصورة أنه عند نفس الدرجة من

الـــتجارب ابتعد فجأة صارخاً في وجهها: كم أنت امرأة سيئة.. أنت أسوأ امـــرأة في الفراش في العالم.. أي رجل يعيش معك تعيس.. أنت معدومة الأنوثـــة. واســـتمر الرجل في كلماته إلا أنها لم تعد تسمع. ولم تعد تفهم. تداخلـــت الكلمـــات فأصـــبحت غير واضحة.. بل لم تعد ترى أيضاً.. عم المكان سواد حجب الرؤية تماماً.. وغاب عنها وعيها.. أفاقت في الصباح فلم تجده بجوارها في الفراش.

احدثـــت هذه الكلمات هزة عنيفة في حياتها أطاحت بكل الأبنية ذات الدعائم الراسخة التي جعلتها على مدى حياتها السابقة إنسانة متوازنة تؤمن بكل ما هو حق وأصيل وجميل.. احدثت الهزة شروخاً بجدار القلب فلم يعد قـــادراً على مسئولية احتواء إنسان داخله باسم الحب.. ومن كثرة ما تهدم داخلهـــا ثار غبار لوث الروح ففقدت صفاءها وتلقائيتها.. ومن يفقد تلقائيته يفقـــد ثقته بنفسه.. ومن يفقد ثقته بنفسه لا يهدأ حتى يستعيدها لأنه بدونها كتراب لا يقوى الهواء على حمله وإنما يبعثره هنا وهناك بلا هدف.

هكـــذا أصبحت.. وهكذا تحولت.. وكان التحول في اتجاه واحد وهو اســـتعادة ثقـــتها بنفســـها كامرأة قادرة على إسعاد رجل، كانت قادرة على إثارة، ككيان إنساني قابل للحب وقادر عليه..

وفي كل يوم تسأل نفسها من أنا ومن أكون؟

كيف كنت وكيف أصبحت؟ وإلى أين أسير؟

ماذا أريد بالضبط؟ لقد أصبحت زوجة خائنة إذا كان تعريف الخيانة هو أن تعاشر المرأة رجلاً غير زوجها.. وهل الخيانة إدانة؟

وهـــل الإدانة جائزة دون معرفة الأسباب والدوافع؟ هل من حقنا أن نقـــول وأن نسأل لماذا تخون المرأة زوجها؟ هل هناك أسباب تدفع المرأة

دفعاً وقهراً، وضد إرادتها لتخون زوجها؟ هل الخيانة هواية أم حالة مزاجية أم ميل فطري للتعددية؟ هل الخيانة استعداد موروث أن ثمة عوامل خارجية تفسرها أي تفسر حدوثها؟

هل هناك خيانة مقبولة أو مشروعة أو مبررة وأخرى غير ذلك؟ وهل تصبح الخيانة حقاً لبعض النساء؟ وهل هناك فرق بين خيانة الرجل وخيانة المرأة؟

والحق أقول أنني خنت زوجي بملء إرادتي واختياري ورغبتي وقناعتي وتخطيطي وتدبيري وإنني غير نادمة على ذلك ولقد عرفت أربعة رجال على مدى عشر سنوات منذ أن ذبحني فأنا مازلت أقطر دماً من أنوثتي المنهارة وكياني المهدم.. وفي كل مرة أعرف رجلاً أبحث في عينيه عن مدى رضاه عني وكأنني لا أجرؤ أن أسأله مباشرة.. وأود أن أسأله هل كنت سعيداً معي في الفراش ولكني لا اجرؤ أن أسأله مباشرة.. وأود أن أسأله هل كنت سعيداً معي في الفراش ولكنني أتردد.. أخاف.. أرتعب..

أخشى أن أشعر بأنه يكذب علي وهو يجاملني.. فأسكت. أكتفي مراقبة تعبيرات وجهه وبالتنصت على أنفاسه.. وبالشعور بخلجات عضلاته وبإصراره على مقابلتي في المرة التالية.

وأظل معه عاماً أو عامين.. ولا أبرأ... لا تعاودني الثقة.. أشك في مدى صدقه معي.. أتصور أنه يعرفني بحكم العادة. أرتعب من فكرة أنه قد يهجرني في يوم من الأيام ولذا أبادئ بهجرة.. أتعرف إلى رجل جديد.. أعيش معه نفس الدوامة باحثة عن شيء واحد وهو أنوثتي الضائعة. وأتصور أن رجلاً ما سيرد لي هذا الإحساس المفقود، أنتظر أن يقول لي

رجـل مـا أنـت أمتع امرأة في العالم، أنت مثيرة، أنت لذيذة، أنت جذابة جنسـياً.. الرجل الذي يعرفك لا يستطيع أن يعرف امرأة أخرى بعدك. ثم أتـركه إلى رجل ثالث، وأعترف بأنني لم أحب أحداً من هؤلاء الرجال.. حـتى عرفـت الرجل الرابع، كان انطوائياً وهادئاً وعطوفاً.. ربما أدرك حقيقة مشكلتي بالرغم من أنني لا أفصح أبداً عنها.. أدركت بعد وقت غير طويـل أن هذا الرجل يحبني.. أشعر بحنانه الدافق حين يحتويني.. لم يكن يقـبل علـي جنسياً بنهم، لم يكن شغوفاً بالجنس إلى حد الهوس.. اطمأن قلبـي.. لأن هـذا النوع من الرجال صادق، وأعترف بأنني لم أشعر بأي إحساس جنسي مع هؤلاء الرجال الأربعة، الرجل الوحيد الذي عرفت معه الجـنس كان زوجي.. وأنا لا أبحث عن الجنس.. أنا لست جائعة الجسد.. ولكنني جائعة لشيء آخر.. إنه الثقة بالنفس.

وبـدأت أمـيل عاطفـياً إلى هذا الرجل الرابع.. وتدريجياً بدأت لا أنشـغل بالقضية الجنسية.. وتدريجياً أصبح الجنس يحتل مكانة ثانوية في علاقاتـنا، كـنا نسـعد بالحديث معاً.. نسعد باللمسات الرقيقة دون إثارة مجنونة.. وقلت لنفسي لعلي في طريقي إلى الشفاء..

عاد لي اتزاني عادت لي الطمأنينة.. لم أعد أقضي وقتاً طويلاً أمام المـرآة.. لم أعد أحرص على الملابس التي تكشف بجرأة عن جسدي.. لم أعـد أشـتاق لـنظرة الذئب في العيون.. وإنما أتلمس نبرات الحنان في الصـوت.. لم يكن هذا الرجل يتكلم كثيراً، بل كان يسمع كثيرا.. يتأمل.. يفكر بهدوء.

لـم يكن صاخباً.. وقد لا يصدقني أحد إذا قلت إنه كانت تمر أشهر عديدة دون أي لقاء جنسي.. لهذا ورغم ورود أشياء كثيرة عن الجنس في

كلامـــي فإنني لم أكن أتحدث حديثاً جنسياً.. لم أحك حكاية جنسية.. قصتي ليســت عــن الجــنس.. بل إنني شفيت بدون الجنس بل إنني شفيت حينما ابتعدت عن الجنس.

وجاء يوم شاءت الظروف أن نلتقي جنسياً.. وانتهى اللقاء بألم نفسي شديد انتابنا معاً في وقت واحد.. ولأول مرة يعاودني وخز الضمير والذي فقدتـــه فـــي تلك الليلة السوداء حين ذبحني زوجي.. وأفصح لي هو الآخر عن ألم ضميره.. وبكى.. ألماً.. وشعوراً بالذنب.. قال لي الحل الوحيد أن نـــتزوج. وليس مهماً كيف صارت الأحداث بعد ذلك.. فالمستمع أو القارئ يســتطيع أن يتخــيل أي ســيناريو يعجــبه وعلى هواه انعكاساً لشخصيته وطريقته في التفكير.

البعض سيتصور أنني سأطلب الطلاق من الزوج الذي أهان أنوثتي وأتــزوج مــن الرجل الذي احترمني وأحبني. ربما يتصور البعض الآخر أننـــي ســـأطلب الطلاق فعلاً.. ولكنني لن أتزوج من الرجل الآخر.. ربما أتــزوج مــن شخص جديد لم تكن بيني وبينه علاقة محرمة.. والبعض قد يتصور أنني سأقطع علاقتي بالرجل الذي أحببته وسأستمر مع زوجي.

والحقــيقة أنـــي كنت في حيرة من أمري. وقلبت الأمور من جميع أوجههـــا ولم استقر على رأي، جميع الحلول كانت مرفوضة من داخلي.. إلـــى أن حــدث أمر هزني مرة أخرى.. لقد علمت أن زوجي على علاقة بامرأة أخرى.. والافتراض الطبيعي أن رد فعلي سيكون بارداً، لأن امرأة آثمـــة مثلـــي ليس لها الحق في أن تعترض على خيانة الزوج.. ولكن ما حــدث كان غريباً وغير متوقع. لقد ثرت ثورة عارمة وقلبت حياة زوجي جحــيماً، وهــددت المرأة التي يعرفها وطلبت الطلاق إلا إذا تركها.. كان

انهـــياري عنـــيفاً، واحتجــت لزيارة الطبيب النفسي وأعلمته بقصتي كلها وسألته تفسيراً.

قـــال الطبيب: أنت مازلت تحبين زوجك، ولقد سامحته على إهانته السابقة لك بعد أن تم شفاؤك واستعدت ثقتك بنفسك. أنت لم تحبي أي رجل آخـــر.. وعلاقاتك المتعددة بالرجال كلها كانت علاقات مَرَضِيَّة.. لقد كنت مريضــــة مبعـــثرة الـــذات مجروحة الكرامة منعدمة الثقة بالنفس.. وحين استعدت ثقتك بنفسك واندمل الجرح استيقظ ضميرك مرة أخرى.. شعرت بالـــندم الشـــديد. وســـتظلين تتعذبيـــن بإحساسك بالذنب.. ولهذا فأنت لن تتزوجني من الرجل الذي أحبك وعرض عليك الزواج فأنت لا تحبينه وإذا تزوجته فستظلين تتذكرين الإثم الكبير الذي اقترفته..

أنـــت تحبيـــن زوجـــك.. ولذلك فحين علمت أنه على علاقة بامرأة أخـــرى شـــعرت بالغيرة.. ومشاعر الغيرة تنطوي على عدم الثقة بالنفس ولهـــذا فقد عاودك الألم القديم شعرت بالتهديد الشديد.. هاهو الزوج يفضل امـــرأة أخرى.. إذا أنا أقل من هذه المرأة.. إن زوجي لا يكتفي بي لأنني منقوصة.. ولهذا ثرت من أجل نفسك.. وثرت دفاعاً عن حياتك الزوجية.. وهذا رد فعل صحي من امرأة صحيحة نفسياً.

حاولت أن أقتنع برأي الطبيب فلم أستطع، لقد ذبحني زوجي مرتين. مـــرة حيـــن طعن أنوثتي ومرة حين خانني، خيانة زوجي إهانة لي.. أما خيانتـــي فكانت انتقاماً.. أنا لا أحب زوجي ولا أحب أي رجل آخر.. لقد أصـــبحت عاجـــزة عن الحب، ولذا فأنا لا أصلح أن أكون زوجة لأي من الرجلين.. فلا يصح زواج بدون حب.

المؤانسة

رغم أن البيت كان يقع على أطراف القرية يقف وحيداً دون مساندة جِواريّـــة مـــن بيوت أخرى. ورغم أنه كان يتألف من حجرة وحيدة كعش فـــريد علـــى شجرة يتسع بالكاد لزوجين من اليمام.. ورغم أنه كان متخلفاً عـــن العصر فلا تصله الكهرباء وزيته شحيح. ورغم أن الحركة فيه كانت تـــتوقف تماماً بعد صلاة العشاء فلا يسمع منه إلا أنفاسٌ هادئة تتردد تؤكد نوم أصحابها الأربعة زوج وزوجة وطفلين.. ورغم انعدام زواره لضعف مقـــام أصـــحابه. ورغـــم قســـوة شتائه لقلة غطائه.. ورغم اختناق صيفه لمحدودية منافذه.. ورغم ابتعاد الضال من الحيوانات منه لانعدام ما يجود بـــه من غذاء فائض حيث لا يكفي إلا لأصحابه بالكاد.. ورغم أن كل ذلك لا يحـــث إلا علـــى الضجر.. رغم كل ذلك فإن أصحاب هذا البيت كانوا يشعرون بالمؤانسة.. يتلهف الزوج على العودة من عمله إلى البيت لتتلقفه زوجة أكثر تلهفاً وليلتف حوله طفلان بلغ بهما الشوق مداه.. يجلسون إلى طعـــام بســـيط يتســـامرون.. لا تتوقف الحكايات إلا حين يؤذن للعشاء.. يصلـــون، يـــنامون فـــي هناء. لا يصحون إلا حين يؤذن للفجر، يصلون، يلتهمون بتلذذ طعاماً أكثر بساطة، يشعرون ببعض الضيق لتفرقهم كلٌ إلى شـــأنه.. الأمـــل في اللقاء آخر النهار يملَؤُهم حماسة.. الشوق المأمول أي الشـــوق الذي سيعقبه لقاء مؤكد هو مصدر الطاقة في هذه الحياة، ويذهب عن النفس أي ضجر. لا ضجر مع الشوق المأمول.

ذكرى الحبيب

رغـم أن الأحـباب رحلوا بفعل المشيئة الإلهية.. الرحيل المحتوم وليس رحيل الغدر. ورغم أن مرور الزمن باعد بين الحاضر وبين ما خلا مـن أيـام جميلة.. ورغم أن النسيان قد التهم بعضاً من التفاصيل.. ورغم تعاقـب أحداث وأحداث كفيلة بأن تزيح أي ذكرى لأيام مضت، ورغم أن الحاضر لا يجود إلا بالجمر الرديء الذي يعطل الفهم، ولا يجود إلا بالنغم السـخيف الـذي يطفئ وهج الوجدان ولا يجود إلا بالغث من الأفكار التي تلوث الروح.

رغـم الوحدة.. رغم البيت المهجور، رغم الطبق الواحد على مائدة الطعـام، رغم الوسادة الوحيدة والغطاء المختصر، رغم كل ذلك فإنه تعود وهو عائد إلى بيته في المساء بعد يوم عمل طويل متواصل أن يمني نفسه بلقـاء خـاص مع ذكرياته، وفي محاولة لاستعادة تفاصيل يوم معين، أو مـرحلة بأكملهـا أو حـدث خـاص، ما أحلاها من أيام وأحداث.. مجرد اسـتعادتها تبعـث الحماسة فتتدفق الطاقة وتثب الروح من الفرحة ويبتهج العقل من النشوة.

إنهـا حفلة خاصة جداً من ذكريات لأيام مع الحبيب، يبدو أن مجرد استعادة ذكريات أيام جميلة كفيل بأن يوقف فعل الضجر في حياة الإنسان. يـبدو أن المؤانسة من الممكن أن تتحقق بمجرد التذكر، يبدو أن الذكريات مع الحبيب بالذات هي التي تضيء وتبهج وتنعش وتؤانس وتملأ وتفيض. وإذا كـان الرصيد المالي يضمن الستر ويتحدى غدر الزمان فإن الرصيد العاطفـي يضـمن السـعادة ويتحدى ضجر الأيام.. لا ضجر مع ذكرى الحبيب.

الإخوة والأصحاب

رغـــم أن الهواء نقي والشارع نظيف، جنباته خضراء كأنما يخترق حديقـــة، ورغـــم أن الطعـــام وفير والمال كثير.. ورغم أن الوجوه باسمة والطباع سمحة.. رغم أن الحياة سهلة بفعل النظام والإتقان ورغم أن العقل منـــبْهر بـــالعلم والابـــتكار، ورغم أن الوجدان متناغم مع إبداعات الفنون والإدراك مشـــبع بجمـــال الوجوه.. رغم كل ذلك فإن القلق يتزايد كبركان يتشكل ويهدد باختراق سطح الأرض ليشعل ناراً وينسف بيوتاً ويهد أركاناً فالضجر قد بلغ مداه رغم طيب الحياة.

فالبعد عن الأوطان عذاب للنفس وأقسى عذاب للنفس هو الضجر.. ولا شـــيء يُذْهِب الضجر عن النفس إلا الأهل والأصحاب.. يا أخي تعال لـــتؤنس الأيـــام.. يـــا صاحبي تعال لتبتهج الليالي.. فنقاء الهواء ونظافة الطـــريق وخضرة الشعاب ووفرة الطعام وكثرة المال وجمال الوجوه ودقة الـــنظام وارتقاء العلوم وجودة الفنون كل ذلك وحده لا يكفي لحماية النفس مـــن الضـــجر. وأتعـــس ضجر هو ضجر الغربة عن الأوطان ولا يُذْهِبُ ضـــجر الغـــربة عـــن الأوطـــان إلا العودةُ إلى الأوطان أو اللقاء بالأخوة والصحاب ولأن العودة غير مأمولة واللاعودة مفروضة فلا مؤانسة إلا مع الإخوة والأصحاب.

فـــي نهاية الأسبوع يلتقون. يجتمعون. يأكلون يتسامرون. يمرحون. حكايـــات لا تنتهي ونوادر تحكي فيضحكون. البركة في اللمة والبهجة في الجماعـــة. والألحان القديمة تحيي القلوب وذكريات الأوطان تشعل النفوس بالحماســـة والنشوة. في نهاية الأسبوع يلتقون يأتنسون، وذلك يذهب ضجر الأسبوع الذي يليه.

الأم

رغـم الجفـاف رغـم اختلاف الجو فأصبح الصيف قائظاً والشتاء قارسـاً.. رغم نضوب العواطف وندرة الحب.. رغم غلظة الطباع وغلبة الهوى وضعف النفوس، رغم الغيرة التي تتقلب حقداً..

رغـم الهـوة التـي تفصـل بيـن الناس.. رغم التباعد والانغلاق والتحوصل لمنع اقتراب طالبي الحاجات.. رغم عدم الكياسة وانعدام اللباقة وجـرح مشـاعر وأذى الشعور.. رغم كل ذلك فإنه لم يشعر أبداً بالوحدة لأنهـا مازالـت موجـودة على قيد الحياة، أنهكها السن والمرض ولكنها مازالت قادرة على الدعاء له.

يشـعر بالفرحة وهو في طريقة إليها.. ويرى بيتها وقد مليء نوراً يقبل يدها، يجلس بجوارها يحكي لها عن متاعبه، تدعو له، يقول في سره يا بركة دعاء الوالدين يمتلئ فرحة ويزدهي حماسة وتدب في أوصاله قوة وتفوح منه الطاقة، يا بركة دعاء الوالدين.

يشـعر بالمؤانسـة رغم بساطتها، لا يريد أن يغادر، وإذا هم بالقيام تقـول له أجلـس يـا بنـي فلم أشبع منك بعد، لا ضجر مع مجالسة الأم الحـنون، المؤانسة تأتي من ظلال قلب، المؤانسة تأتي مع الحب، المؤانسة حب، المؤانسة أم، تأتنس حتى بالصمت وأنت جالس بجوارها.

الأب

رغـم العلم الغزير والفكر العميق.. رغم كتب قرأها وبلاد جابها.. رغـم محاضـرات ألقاها وفتاوى أفاد بها وإبداعات يسره الله لها.. رغم الحكمـة والبلاغة، رغم الرؤية الأشمل والحس الأنضج، رغم كل ذلك فقد كـان يجلـس كتلميذ صغير بجوار أبيه البسيط.. يسأله إذا واجهته مشكلة

ويستشيره إذا أقلقته الحياة ويطلب منه النصيحة إذا استعصي عليه موقف.

يا أبي إني ضعيف فساعدني.. فيقول الأب: قواك الله يا ابني.

يا أبي إني بائس فأنقذني.. فيقول الأب: كان الله في عونك يا ابني..

يا أبي أني متعب.. فيقول الأب متعك الله بالصحة يا ابني.

يا أبي إني ضجر.. فيقول الأب آنسك الله بمحبتك يا ابني.

يغــادر الابن مجلس الأب وقد هدأت نفسه. ويستعيد ما قاله له الأب ونصـــحه به وأرشده إليه. فلا يجد شيئاً محدداً ورغم ذلك فقد وجد الحل.. اهتدي إليه.. أضاء أمامه الطريق، فلا طريق إلا طريق الله.. فلن تجد غير حكــم الله حكمــاً، ولن تجد دون الله باباً. لا ضجر مع ذكر الله، والمؤانسة هي فيض من حب الله.

العشاق

حيــن يجلس إلى حبيبته لا يمل الحديث.. ساعات وساعات.. تحكي وتزيد.. ويحكي ويزيد.. تواصل لا يقطعه إلا الانتقال من فكرة إلى فكرة.. وأفكار.. وكل الكلام له معنى.. والكلام الذي له معنى لا يمل.. وكل كلام العشــاق له معــنى لأنه يخرج من القلب.. وهو قلب الصدق وهو صدق القلــب.. وهو كلام ممتع لأنه مشبع بالأمل.. وكلما امتد الكلام خفتت حدة ألــم الأشــواق، فمشكلة العشاق هي الشوق.. والشوق ألم.. ممزوج بالأمل والرغبة والتوقع الحسن.. ولهذا حين يلتقيان يفرحان ويتكلمان ولا يتوقفان كمن ينهل من الماء ليطفئ عطشاً.

وكــلام العشاق ليس فقط متعة للقلب بل هو أيضاً متعة للعقل.. ولذة للعقــل لا تدانــيها لذة.. ومحظوظ من يجد شيئاً يلذ عقله.. علم أو فكر أو فــن.. والحــب أيضاً هو ما يلذ العقل.. لأن الحب محمل بالمعنى الكلي..

المعــنى الشــامل.. معــنى الحياة والوجود.. قيمة الحياة وجدواها.. قيمة الإنســان، والعقــل لا يتلذذ إلا بكل ما له معنى وقيمة وهدف، العقل يتلذذ بمعرفة أصل الأشياء وجدواها، العقل يبحث عن أصل الظاهرة.

العقــل هو أروع تحقيق لإنسانية الإنسان، والعقل طريق مباشر إلى الله، طــريق الهداية عن طريق العقل، وهو في نفس الوقت طريق الحب، طــريق الفهم العميق.. طريق الإحاطة.. طريق الطمأنينة.. فالله حب والله محــبة والله أمــان وســلام.. ولذلك وهبنا الله العقل لنهتدي إليه بفعل نور محبته.. ولهذا فمنطقيٌ ألاّ يضجر المحبون.. دليل الحب هو اختفاء الضجر مهمــا طال الحديث ومهما طال الاقتراب. بل يودان ألا ينفصلا لحظة في قمــة المؤانسة.. ولذا فالحب هو أقصى درجة من المتعة.. قد نسميها متعة معــنوية أو روحــية ولكــنها فــي الحقــيقة متعة عقلية. متعة الاكتشاف والكشف.. متعة اليقين والتيقن.. متعة السلام والتسليم.

ولهذا أبق معنا.

إلغاء البشر

يســـتطيع الإنســـان أن يلخص كتاباً في سطر واحد، بل يستطيع أن يصـــف مدرســـة في الفكر في جملة واحدة، كما يستطيع أن يستخلص من حقـــبة تاريخية تقاس بقرن من الزمان معنى أو مضموناً يسطر في كلمات قليلة، وأيضاً في الإمكان وصف شخصية إنسان في كلمة واحدة.

لكـــنك لا تستطيع أن تلغي شيئاً موجوداً سواء أكان فكراً أم زمناً أم إنســـاناً، أنـــت لا تســـتطيع أن تمحق الأفكار وأن تشطب الزمن وأن تنكر وجود الإنسان، فأي كائن تم إدراكه يسجل في ذمة التاريخ، أي حدث تمت معايشـــته يدرج في طيات الذاكرة، أي زمن كنت شاهداً عليه، يتحول إلى مـــاض، أي فكـــر اطلعت عليه يتداخل في صميم جهازك المعرفي سواء أرفضته بعد ذلك أم ظل إيمانك به قائماً.

لا توجـــد ممحاة تزيل البشر أو الزمن أو الأحداث أو الأفكار، إنها تظل معك في داخلك، معلنة أو غير معلنة، مكشوفة أو مستورة في الوعي أو فـــي اللاوعـــي، وبذلك يكون هناك تواصل وتطور ونمو، لا يمكن أن تسقط حلقة من السلسلة وإلا تصبح جزءيين منفصلين.

لكـــن حيـــنما يشيخ الإنسان ينكس، تتوه الأحداث وتضيع الأشخاص ويمســـح الزمـــن، ويلغي الأشخاص وتنمحي الأفكار، إنه السقوط الكبير، الســـقوط الـــذي لا ارتفاع من بعده، بل يعقبه سقوط وسقوط إلى قاع البئر الســـحيقة، وحينـــئذ تصـــبح حياة الإنسان ذاته بلا معنى، ومن الأفضل أن يموت أكبر مدعاة لأن يموت الإنسان أن يتفسخ عقله وأن يتشتت فكره وألا

تتواصل ذاكرته. وإني لأعجب لحالتي إذ أُلغِيَ شخص من عقلي وضاعت أحــداث مــن ذاكرتي، وانتُزِعت فترةٌ زمنية من إدراكي وتبخرت قيمة أو مجموعة قيم من وعي، ماذا حدث لي؟ هل أصيب مخي بشيخوخة مبكرة!! هل تصلبت الشرايين واندثرت الخلايا.

وإليكم قصتي من آخرها:

إننــي لا أعــترف بوجود شخص أحببته سنوات طويلة من عمري، إننـــي لا أشعر أنه موجود الآن، بل هو لم يكن موجوداً في يوم من الأيام، أي إنـــه لم يخلق أبداً، وبالتالي ضاع الزمن الذي كان موجوداً فيه وسقطت الأحــداث التي ارتبطت به، كما أن كل المعاني والقيم والمفاهيم التي كانت مــتعلقة بـــه دفنت تحت التراب بل تلاشت، فالتلاشي يعني عدم الوجود، المقابــر شــاهدة على ما بداخلها، أما الجسد الذي يحرق وتتناثر ذراته فلا دليل على أنه كان موجوداً أصلاً، أي لا دليل مادياً.

ماذا حدث لي؟ كيف ألغيت هذا الشخص؟ كيف اكتشفت أنه تم شطبه تماماً ؟ ولماذا؟ وكيف كان عندي قبل الإلغاء؟

إنهــا قصـــة طويلـــة، تعــود إلى سنوات طويلة مضت حين قابلته وأحببـــته، أما لماذا أحببته، فلأنني أحببت نفسي معه بل أقول إنني أحببت نفسي معه أكثر مما أحببته هو، وما أجمل أن تحب نفسك من خلال شخص آخر. وما أروعه من إنسان يجعلك تحب نفسك أكثر مما تحبه هو، إنك بعد ذلــك سوف تحبه أكثر مما تحب نفسك لأنه خالقك، موجدك، باعث الحياة فيك، وتلك هي منظومة الحب الخالدة، أن تحب نفسك وتحبه ويحبك هو.

وحيــن أحببـــت نفســـي أصبحت مرحة شجاعة واثقة بنفسي معتدة بقدراتي، وبذلك أصبح هناك ارتباط شرطي بين حبي لنفسي وحبي له، لقد

أضـــاف لحياتي، لقد أضاء طريقي وسلمني خريطة لطرق لم أكن أعرفها ورفع عني ضجراً معروفاً عن الحياة، كان الكلام معه سهلاً والسهولة هنا تعني أنه لم يكن يلف ويدور، كلامه ليس له أكثر من معنى بل كان مباشراً وواضحاً.

معـــه لم أكن أحتاج لأن ألعب مباراة، ولم أكن أجهد ذهني لمعرفة المباراة التي يلعبها لم يكن يلعب أي مباراة على الإطلاق في كل معاملاته الإنسانية وبالتحديد معي، ولذا كنت أشعر بالراحة الذهنية وبالطلاقة الفكرية والتداعي الخلاق معه.. أكون على حقيقتي وأنا معه، أكون ذاتي الحقيقية لا أضطر إطلاقاً لأن ألبس قناعا.

كـــان كـــل شــــيء معه يبعث على الراحة الاسترخاء والميل إلى المـــرح، شيء مريح حقاً، قبله كنت أشعر بأنني ألهث أنني مشدودة، أنني أقــف علـــى الحافـــة، بعـــد أن عرفته هدأت أنفاسي واسترخت عضلاتي فاستشـــعرت خدراً لذيذاً في أعصابي كم أصبحت الحياة رائعة معه. ورغم أننـــي كنـــت مكـــتملة الأنوثة في حضرته إلا أنني كنت أمرح معه كطفلة أجـــري معـــه حافـــية القدمين على الشاطئ أقذفه بالرمال ويَهيل على ماء الـــبحر، وكان يخشى على أن أغني، وكنت أغني له وحده، وكان صوتي جميلاً، وكان يستعيد غنائي.

كـــان الصباح يشهد على طفولتنا، وكانت الظهيرة تستثير فكرنا أما اللـــيل فكان يحرك رومانسيتنا ويوقظ فطرتنا. وكان كل صباح يحمل أملاً جديـــداً فـــي أن نكون معاً إلى الأبد، لم أكف عن الأمل، ولم يَهِن أملي أو يضـــعف في أي لحظة، كنت أثق به لأنه كان يحبني، ومن يحب يصدق، ومن يحب يخلص، ومن يحب يبذل جهداً للحفاظ على حبيبه.

ولكنه لم يتقدم، لم يتحرك، لم يفعل شيئاً، ظلت الأمومة معلقة، وطال الـــزمان، وتســـرب داخلي القلق اللعين، والقلق يجر الوساوس، والوساوس تجـــر الهواجس، والهواجس هي افتراضات سوداء يعقبها ظن أكثر سواداً، ولكني لم أصل أبداً، إلى اليقين بأنه سيئ، فمن يحب لا يظن بحبيبه السوء حـــتى وإن أجمعت الدنيا كلها على ذلك، ولكنه القلق اللعين والأمل الذي لا يتراجع رويداً بقدر غير محسوس. ثم وجدتني وأنا مشدودة معه، أفلت مني الاسترخاء الذي كنت أحسه في حضرته، أصبحت أتصنع، جئت بعدة أقنعة لألبس في كل مناسبة معه قناعا، كرهت نفسي بالقناع، ومن قبل كنت أحب نفســـي معـــه، وهكذا فقدت شيئاً كبيراً، هوى ركن مهم في علاقاتنا، سلب مني قيمة كبرى تأكدتْ من خلال علاقتنا وهي أن أكون نفسي الحقيقية، أن أكون على طبيعتي.

ثـــم ظننت أنه يلعب المباريات، يحاورني، يقول شيئاً لا يعنيه، يقول شيئاً ويفعل شيئاً، فهوى ركن آخر في علاقاتنا وهو الصدق، ولم أجرؤ أن أصـــفه بـــالكذب، لـــو فعلت ذلك لقتلت نفسي، وحين فعلتها أدركت هول الكارثـــة التـــي نحـــن مقبلان عليها، وحين نمت ليلة قبل أن اطمئن عليه أدركت أن الكارثة على وشك الوقوع، وحين أدرت مفتاح سيارتي ولم أدر شريطاً يحمل لحناً أحببناه معاً، واستقبل به كل صباح تيقنت بأن تغييراً ما حدث داخلي.

أصبحت عصبية، شديدة الانفعال، مندفعة، تخرج مني ألفاظ لا تعبر عن شيمتي الحقيقية، تباعدت لقاءاتنا، قلّت حماستي، وقلت حماسته.

ولكـــن ظـــل باب الأمل مفتوحاً فليس من طبعي أن أفقد الأمل، فأنا مناضـــلة وعنيدة ولدي إصرار ومازلت أحبه، إنه عمري، ولازلت أذكره

وهو بهي الطلعة باسم الوجه مرح الفؤاد صافي النفس سهل المعشر، سديد الــرأي، عميق الفكر، حلو اللسان، رقيق الطباع، دمِثُ الخلق، نشيط عفيّ مقبل متحمس، مشتاق، أين هو الآن من كل ذلك؟

لقــد تغــير، ولابــد أن أعترف بأنني تغيرت، فعل الزمان أم فعل الشــيطان لست أدري، ولكني مازلت أحبه، مازلت أتذكر عصرنا الذهبي، مــازال بــاب الأمــل يدفع بضوء مؤكد لا تنكره عين، ولكن يبدو أن لكل رواية نهاية، ولابد أن تسدل الستارة وتنتهي الحكاية.

فــي يــوم قــدت سيارتي ومررت بطريق جئناه معاً، وحاولت أن اســتعيد المشــاعر التي صاحبت وجودنا في هذا المكان فلم أستطع، بل لم أتذكر أي نوع من المشاعر أياً كانت، يا للمصيبة.

وهــل يســتطيع إنسان أن ينسى أحداثاً عظاماً أثرت في حياته أبلغ تأثــير مثل أول لقاء وأول مصارحة، أول قبلة، وأول ملامسة، أين اختفت كل هذه الأحداث وكأنها لم تقع.

وســألت نفسي هل مازلت أحبه، فأصابني العجب وقلت وهل كنت فعــلاً أحــب هذا الرجل؟ ورجعت إلى ما كان يكتبه لي وأكتبه له، وسألت نفســي كــيف كنــت أحب هذا الرجل كل هذا الحب، هل يستغرق الوهم سنوات طويلة من عمر الإنسان!!

وجاء اليوم المهيب صحوت شبه ميتة، وكأن شخصاً مهماً قد مات، وكــأن زعــيماً محبوباً قد مات وعم الحزن كل البلاد، في هذا اليوم رأيت شــيئاً حزيناً. وحين كنت أحزن لأي سبب كنت أفكر في الرجل الذي أحبه فيتــبدد الحــزن، وفــي هذا اليوم المهيب حاولت أن أفكر فيه فلم أستطع،

حاولـــت أن أفكـــر فـــيه فلم أستطع، حاولت أن أتذكره فلم أستطع، لم يكن موجـــوداً، ضـــاع تمامـــاً، بل هو أصلاً لم يكن موجوداً في أي وقت من الأوقات.

إرهاصات

في لحظة ما تصل رسالة مبهمة عبر الأثير إلى شخص ما. رسالة لا يســـتطيع أن يفك طلاسمها، رسالة ربما تصل إلى وجدانه قبل أن تصل إلى فكره لتحرك شعوراً معيناً لا يدرك كنهه، مجرد شعور غير محدد.

مجـــرد اســـتثارة، ولكـــنه يحقق عائداً إيجابياً يحقق رضا ما، يمس رغبة دفينة، يبعث سروراً يكاد لا يلمح، يرسل خيطاً من نور يكاد لا يرى، بـــل هو لا يرى حقاً بل يدرك، وحين تدرك نوراً فأنت لا تراه وإنما تحس وجـــوده، إذ يجعـــل الظلمة أقل غلظة، وأقل استبداداً، أول شعاع نور يهدد الظلمة بالتبدد ويحمل لها الفناء، أول شعاع نور ينبئ بفجر جديد..

هـــذا هو المضمون الوحيد الذي يدركه ذلك الإنسان من هذه الرسالة التـــي وصـــلته بغتة، رسالة تشي بقرب فجر جديد، وتعد بفرحة.. لم تأتِ الفـــرحة بعد ولكنه الوعد بالفرحة، إلا أن الوعد بالفرحة يكون كالفرحة بل أشـــد أثـــراً من الفرحة لأنه وعد يحمل أملاً، والسعادة بالأمل تفوق تحقق المـــأمول، ولـــذا فإنه حين تصل رسالة ما إلى إنسان عبر الأثير ولا يقدر على فك طلاسمها فإنه لا يتحير إذ يكفيه منها الوعد بشيء ما، شيء طيب، وهذا الشيء الطيب بالذات هو شيء اختص بجمال خاص، جمال أخاذ، إنه الوعـــد بالجمـــال، ذلك الجمال الذي يحقق للإنسان حالة من النشوة النفسية القصـــوى، والوعـــد بالنشـــوة التي مبعثها الجمال يحدث في الإنسان هزة رقيقة.

يهتز الإنسان من الداخل نفس الهزة التي تستشعرها حين تستمع إلى لحن طروب أترى وجهاً جميلاً أو تصادف حظاً رائعاً، أو تمُديَدَ العون إلى محتاج أو تسامح مخطئاً في حقك أو تؤثر إنساناً على نفسك.

تلــك الاهــتزازة لا تحــدث إلا إذا كان هناك شعور هو مزيج من الرضا والفرحة واللذة، ثلاثية عجيبة تجعلك أقرب إلى ما تعد به الجنة.

وتظــل الرسائل تصل تباعاً، رسالة تِلْوَ رسالة، وكل رسالة تضيف شــعاعاً، من نور، تضيف معنى، ترتفع بالإحساس، ولكن الصورة لا تَبين إنها صورة تصل إلى كل الحواس إلا العين بالرغم من أنها صورة، صورة نســجها العقل والإحساس بإيحاء من هذه الرسائل التي تصل متتابعة والتي قــد تســتغرق سنوات.. صورة تسهم في غزلها الأذن، وكأنك تسمع شدواً ملائكياً، ويسهم فيها الأنف وكأنك تشم مزيجَ روائحَ تنبعث من حديقة ورد، ويسهم فيها الجلد وكأنك تلامس نسمة صيف حانية في برودتها.

ومــع تتابع الرسائل تتشكل الصورة وتدركها كل حواسك إلا حاسة البصــر، يظــل الشكل مخفيّاً عنك، ويجاهد العقل في خلق تصور لها، ثم تحــاول أن تبحث عنها في كل ما حولك، ولكن كل ما حولك هو أدنى، هو أقــل، هــو لا شــيء بالنسبة لها، إنها تفوق الأشياء جميعاً، وتعلو عليها، وكأنها تطل علينا من السماء، وكأنها ملك، يأيها الملك الصالح أفصح عن وجهك واستبن إني أتوق لرؤيتك رؤيةَ العين وليس رؤيةَ القلب، إني أفتش عــنك فــي كل مكان، أخشى أن تمضي أيامي دون أن أراك قد أراك في العالم الآخر ولكني أريد لأن أراك الآن، أريد أن أراك في دنياي، فأنا أحب إنســانيتي، أحب تُرابيَّتي، حتى ولو كنتَ أنت ملاكاً، فإنني أريد للتراب أن يــتلاقى مــع النور، وسيكون أروع تلاقٍ، فيدرك النور الجمال الكامن في

التراب، ويدرك التراب الجمال الكائن في النور. وحتى لو كنت تراباً فلابد أن الله شكلك بطريقة خاصة فجعلك نوراً في صورة تراب، أي أنت ملاك إنســـاني، أنـــت مـــلاك في هيئة بشر، فهل يحق لي أن ألتقي بهذا الملاك أعجوبـــة الله فـــي خلقـــه حين مزج النور بالتراب هل ترابيتي البحتة من الممكن أن تتلاقى مع النور الترابي.

ولكن لا شك أنني جدير بذلك، فهذه الرسائل تصلني وحدي، رسائل بعيـــنها، رسائل لها هدف واحد، وهي أن تشكل صورة لذلك المخلوق حتى أســـتطيع أن أتعـــرف عليه حين ألقاه، وكيف لي أن أتعرف عليه دون أن أعرف شكله، لقد وصلني كل شيء عنها إلا شكلَها، يبدو أن حاسة البصر هـــي أقـــل الحـــواس أهمـــية، يبدو أن الجمال الأعظم لا يدرك إلا بعينك الداخلـــية، عين القلب، عين الشعور، عين العقل، فنحن نعرف أشياء كثيرة بقلوبـــنا وأحاسيســـنا وعقولنا، وما نعرفه عن طريق القلب هو يقيني، نحن نتيقن بقلوبنا، القلب هو وسيلتنا للمعرفة اليقينية.

ولهذا أيها الملك العظيم أنا أعرفك يقيناً بقلبي ولكن ترابيّتي المحضةَ تلح علي وتوحي إلى أن النشوة الكبرى لن تتحقق إلا برؤيتك فمتى أراك. ويطـــول الانـــتظار، ســـنوات.. وسنوات، وعبور السنين يعني مزيداً من النضـــج. وفـــي يـــوم ما، وفي لحظة ما بعينها يُؤْذَن للمستور أن ينكشف وتتحققَ الرؤية العينية.

يـــدق جـــرس التلـــيفون، وقبل أن يمد يده ليرفعه إلى أذنه يساوره إحساس ضخم وكأنه تلخيص لكل الرسائل التي تلقاها على مدى سنوات.

ويأتي صوتها عبر الأسلاك فيتعرف عليها، وحين قدمت له نفسها ، كـــاد أن يقول لها أنا أعرفك ولكن هذا غير لائق فامتنع.. وتحدّدَ لقاء لعمل

مـــا، ذهب للقاء باستعدادات خاصة وكأنه مراهق في الخامسة عشرة يلتقي مـــع مراهقة لأول مرة. وحدثت الرؤية العينية، ويا لمطابقة الصورة بكل تفاصـــيلها، إنهـــا هـــي، إنها هي كما وقرت في القلب والعقل والإحساس والروح والشعور إنها هي كما بالداخل، إنها هي التي تربعت داخل خلاياي على مدى سنين طوال.

وتكلمـــت، وناقشت في العمل، وراحت وجاءت، رأس مرفوع لسان طلْق، ثقة بالنفس، وضوح في الفكر، صفاء في النفس، عزيمة في السعي، صوت بحّته منغّمة، سمار يكشف عن عراقة المنشأ وعدم اختلاطه، طموح يمتد إلى أطراف الدنيا، جِدّيَّة في الأداء لم تنل منها رقة التكوين، سمو في الحـــوار يكشف رفعة الأصل ويشي بتقدير هائل لشخصه جعله يزهو، أما زهوها فكان جزءاً من رونقها يسمح بتأكيد المكانة مبتعداً عن حد الغرور.

يـــا سبحان الله، هكذا في لحظات ينكشف ما توارى لسنوات، ولماذا الآن؟ أهـــي مصـــادفة؟ أكـــل شـــيء في الحياة مصادفة؟ ومن وضع هذا الســـيناريو العجيـــب؟ وهـــل نحـــن ممثلون نتحرك حسب أدوارنا أم نحن تلقائيون عشوائيون؟

هل المصادفة هي القدر في أجلِّ معانية أم أن كل شيء مسجل سلفاً، في اللوح المحفوظ ورغم أنه كان قد استقر فكره وتشكلت مفاهيمه النهائية حول هذه القضايا إلا أنه عاد يسأل من جديد، عادت هذه الأسئلة تلح عليه لهـــول عدم التصديق أو لهول الحيرة. شدة المفاجأة جعلته يتحفظ ولا يبدي اهتماماً كبيراً، ربما لأنه لم يكن يدري ماذا يقول وماذا يفعل.

وألحت عليه خواطر اندفاعية يعرف أنها لن تتحقق أو أنه لن يجرؤ علـــى تحقـــيقها، أيقـــول لها الحقيقة؟ أيعترف لها أنه يعرفها منذ سنوات؟

أيحكـــي لها تفاصيل عن نفسها لن تصدق أن أحداً يعرفها عنها؟ أيقول لها أنها أجمل مخلوق في الوجود أيدعوها لأن تشاركه بقية حياته؟

أيسألها عن رسالات غامضة وصلتها عنه تشابه الرسالات الغامضة التـــي تلقاها عنها؟ هل الرسائل كانت تهيؤهما معاً لهذه اللحظة؟ هل كانت تـــتوقع ظهـــوره فـــي يوم من الأيام في حياتها مثلما توقع ظهورها؟ هل المفاجأة كانت لهما هما الاثنان معاً؟

وانتهى ما بينهما من عمل، ومضى إلى حال سبيله دون أن يقول لها شيئاً، وانتظر معجزة أخرى تحدث انتظر يومين، ثلاثة، أسبوعين، وأصابه قلـــق أدمي كل جوارحه، شعر أنه قد فقدها، فكر في أن يتصل بها، ولكنه فـــي حياته ما كره شيئاً أكثر من التصنع، وما كره شيئاً أكثر من أن يبادئ هـــو بالاتصـــال بـــأي إنسان لأي سبب وفضل العذاب على الخروج عن مـــبادئه. وهـــي ليســـت مـــبادئ بالمعنى الدقيق ولكن هكذا هو، هذه هي شخصـــيته، هـــذه هـــي إمكاناته، هذه هي حدوده، أو هذه هي إحدى نقاط ضـــعفه أو قـــل هـــذه هي بعض عُقده، إذ يشعر بحرج شديد حين يبادئ بالاتصال بأي إنسان لأي سبب، ويشعر بالحرج الأكبر حين يَشْتَمُّ أنه يريد شـــيئاً، أو يســـأل عن شيء وامتنع عن الاتصال رغم أن هناك ألفَ حجة لذلك.

وفـــي يوم سعيد لم تشهد حياته يوماً أجمل منه اتصلت هي به، وقبل أن تنطق بكلماتها الأولى قال لقد كنت أنتظر هذه المكالمة فقالت له مباشرة ولقد كنت أنتظر أن تبادئ أنت بالاتصال.

واتفقا على موعد لقاء.

الأعمال الكاملة للدكتور عادل صادق

-----

* كيف تصبح عظيمًا.
* سيناريو الحياة.
* الإدمان له علاج.
* حكايات نفسية.
* العشق.
* الطب النفسي.
* حب بلا زواج و زواج بلا حب.
* في بيتنا مريض نفسي.
* معنى الحب.
* امرأة وثلاث رجال.
* الشخصية.
* سقوط الرجل. "تحت الطبع"
* خضوع امرأة. "تحت الطبع"

أحدث اصدارات الدكتور عادل صادق











